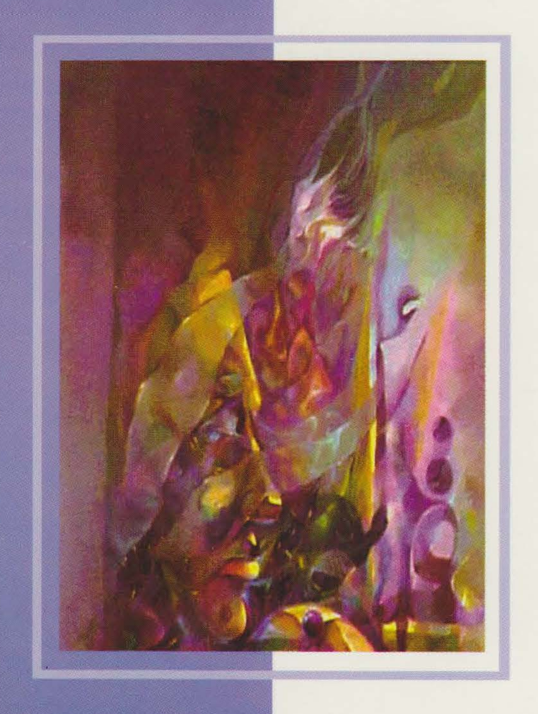
محمد سعيد الأمجد

الفكر الإصلاحي للإمام موسى بن جعفر





المركز الاسلامي المعاصر

الفكر الإصلاحي

للإمام موسى بن جعفر(ع)



الفكر الاصلاحي
للامام موسى بن جعفر (ع)

المؤلف
محمد سعيد الأمجد

نشر و توزيع
المركز الإسلامي المعاصر

ط : الأولى
١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م
بيروت

للمراسلة :
◆ص.ب : ٦٤١٢/١٤ — كورنيش
المزرعة — بيروت — لبنان
◆ ص.ب : ٦٦ — بيبلا —
دمشق - سوريا

Islamic_c@hotmail. Com

المركز الإسلامي المعاصر
THE CONTEMPORANEOUS ISLAMIC CENTER

الفكر الإصلاحي

للإمام موسى بن جعفر "ع"

محمد سعيد الأمجد

المركز الإسلامي المعاصر

دراسات ـ ترجمة ـ نشر


بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة الناشر

إذا كان المؤلف العزيز قد اختار لكتابه هذا العنوان (الفكر الإصلاحي للإمام موسى بن جعفر) ؛فإنه قد اختار منطقة عمل حيوية في دراسة الحركة التعبوية لهذا الإمام العظيم؛ لما تمثله من شرعنة وأصالة .

كما أنه دخل ساحة شاقة عميقة ، حيث القليل من الباحثين من حاول أن يكشف عن أسلوب العمل له (عليه السلام) بطريقة حديثة.

وستجد ـ أيها القارئ العزيز ـ ملامحا جديدة ، تحيلك إلى مدى القدرة التحليلة التي ساهمت في قراءة النصوص التاريخية ، قراءة رصدٍ لعناصر القداسة والإبداع ، وكشفٍ عن أساليب التخطيط التي تبناها خط الإمام الكاظم (عليه السلام) في ظل دائرة العمل المتكامل لأئمة الهدى (عليهم السلام).

الناشر

المقدّمة

لم يأت اعتقاد الشيعة الإمامية بأئمّتهم الإثني عشر (عليهم السلام) كنتيجة موروثة من السلف ـ كما يتوهّم من لا خبرة له بالمذهب ـ ولا تعاطفا وجدانيا مع معاناتهم الطويلة الدامية مع خصوم المبدأ ـ كما ركزته الخطابات الوعظية التقليدية ـ، إنّ الإعتقاد جاء كنتيجة منطقية لعبقريتهم بكلّ ما تنطوي عليه العبقرية من قداسة وتخطيط وتقويم وإصلاح وعمق ووضوح، كمعادل موضوعي فريد لحملات التشويه والتحريف التي تعرّض لها الفكر الإسلامي ومارستها القوى المتعددة من حكومات فاسدة ووعّاظ سلاطين ومتعصّبين وخاطئين في المنهج الإستنباطي وملحدين وفلاسفة وضعيين ومتأثّرين بالمناهج الأخرى.

انّ تركيز هذا الجانب الكشفي والتحليلي لحركة الأئمّة الاثني عشر (عليهم السلام) في الحياة الإسلامية العامّة، كما هو بحاجة الى خطة وستراتيجية للأداء، هو ذو ثمرات عملية وأبعاد حضارية تؤتي معطياتها وثمارها من خلال حركة الزمن والتاريخ والعصر بكل ما يحمل من تقليعات ومستجدات ومتطلبات.

وحول الخطة فالمعرفة المتوفرة في أيدينا هي تواريخ ونصوص وتراث حاوٍ على كنوز ومواد ثمينة بحاجة الى كشف واستنطاق وتحليل وإشارة وربط معاصر بحياة الجيل ووعيه وانطلاقته ومتطلباته.

أمّا الكتابات المتوفرة عندنا ففي أحسن الأحوال هي إعادة صياغة لتواريخ الأئمّة (عليهم السلام) وعرض لحياتهم وفكرهم بطريقة حديثة كما كتب باقر شريف القرشي وهاشم معروف الحسني وغيرهما، فيما تمسّ الحاجة ـ اليوم ـ الى كتابات أكثر عمقا وعصرنة وإثارة وتحليلا في ضوء أطروحة التفسير الموضوعي لحياة الأئمّة (عليهم السلام)، وبطريقة حديثة تربط الحركة والسلوك والفكر بحركة الواقع المعاصر والعالم الثقافي الجديد. وهذا ما وجدنا له متّسعا في حياة الأئمة الاثني عشر (عليهم السلام) حيث شكلت أدوارهم المتعددة طيفا إصلاحيا متميزا ذا هدف واحد يتمثّل في الإرتقاء بوعي الفرد والمجتمع ليكونا أشدّ تماسكا وأعزّ جانبا وأكثر تطلعا.

وبالنسبة لحياة إمامنا الكاظم (ع) فقد خفيت على كثير منّا ـ نتيجة التركيز على فضائله وحياته الشريفة خصوصا الجانب العبادي من شخصيته العظيمة ـ ملامح فلسفته الإصلاحية ودوره القيادي في الفكر والمجتمع، مما دعانا لتأليف هذه الدراسة الموجزة عن الجانب الآخر بغية إضاءته وتحويله الى منهاج عمل يعكس للإصلاحيين

المعاصرين نموذجا إصلاحيا راقيا كما يعكس للمتدينين النموذج السلوكي الأمثل...

أمّا حول فائدة وثمرة كتابات من هذا النوع، فهي تعمل ـ أولا ـ على كشف ملامح العبقرية عند إمامٍ من أئمّتنا المعصومين (عليهم السلام) وإبراز جوانب الإبداع والعظمة التي تجعل إعتقادنا بهم إعتقادا مبتنيا على أساس الوعي والمعرفة والإقتناع الراسخ بعيدا عن العاطفة المحضة والحسّ التقليدي الهزيل.

وتعمل ـ ثانيا ـ على إبراز مصدر للشرعنة الثقافية في خضم الضياع والصراع وضجيج الأفكار المعاصرة، يصلح قاعدة لإنطلاقة الوعي وإنبعاثه لبناء الحياة وترشيد سير الأجيال المتعاقبة والكادحة من أجل الوصول الى الحقيقة...

يأتي هذا في الوقت الذي تلفّ فيه الإثنينيات الثقافية حياة الإنسان المسلم، أملا في ردم جزء مهمّ وحيوي من تلك الهوّة الرهيبة التي تحدثها الإثنينيات المذكورة ... حيث تتركز تلك الهوّة في الانفصال التأريخي بين الفكر والواقع نتيجة سيادة النزعة التوثيقية والمناقبية والانفعالية على معظم كتاباتنا، فيما تعتقد أشكال الحياة حولنا وتتكاثف إفرازات الواقع الراهن في عالمنا.

لقد تحدّثت المصادر التأريخية عن إشتمال حياة إمامنا موسى بن

جعفر (ع) وحركته على رؤية شاملة للفرد والمجتمع، وصلت الى حدّ التخطيط للإطاحة بنظام الحكم العبّاسي الفاسد آنذاك: مما يلقي الضوء على حديث «ابعثنا قائمنا إن شاء الله»، كما اشتملت على رؤية تشريعية دقيقة للمجتمع والوسط العلمي، سعت الى بناء الفرد بناءً محكما رصينا وأسست خطابا إصلاحيا مطلقا عن خصوصياته؛ صالحا للإنطباق على كلّ أشكال الحياة وبُناها الثقافية، مما هيّأ لنا مساحة لإكتشاف ذلك الفكر الإصلاحي وتقديمه كمادة تستلهمها البحوث المختلفة بشكل بنائي منتج.

قسّمنا الدراسة في مشاريع الإمام (ع) الى قسمين رئيسيين: (الحياة الإسلامية والحياة العلمية)، وبحثنا في القسم الأول ثلاثة فصول: (الموقف من الحكم، ومواقف ودلالات، ومشاريع إجتماعية).

وأمّا في القسم الثاني فثلاثة فصول أيضا: (ملامح مدرسة الإمام، الإرتقاء بالمستوى الفكري، وتأصيل الوعي العقائدي).

فإن وفقنا في الكشف والتحليل والربط فذلك فضل من الله اللطيف، وإن قصّرنا فذلك دأب الإنسان، والعذر عند كرام الناس مقبول...

القسم الأول

الحياة الإسلامية

الفصل الأول

الموقف من الحكم القائم

(التحرّك وخلفياته)

الانحراف السياسي للدولتين

لا يخفى على الإنسان ما وصلت إليه الدولة الأموية من الإنحراف وما انطوى عليه مشهدها من التشويه للإسلام والمجتمع الإسلامي آنذاك، واستشراء للعدوان على الجماهير المؤمنة، ولم تهدأ الأحداث إلا نسبيا في زمن عمر بن عبدالعزيز. تلك هي الدولة التي عاش في كنفها الإمام الصادق (ع) ما يقرب ثمانية وأربعين عاما، وبوفاته عام (١٤٨هـ) بدأت فترة إمامة إبنه الكاظم (ع) والتي استمرّت خمسة وثلاثين عاما مليئة بالمعاناة نتيجة تصدّيه لمشاريع التخريب والإفساد التي كانت تمارسها الدولة العباسية، في البنى الأساسية للحياة الإسلامية.

ما أن استتب الأمر للعباسيين الذين اتخذوا من الغضب الجماهيري العارم سندا قويا للانقضاض على الأمويين[١]، حتى

---

(١) ثار العباسيون تحت لافتة المطالبة بدماء العلويين واعادة حقوقهم السليبة، فأيّدتهم قاعدة جماهيرية عريضة تمكنوا أن يقتحموا بها بلاطات الأمويين ومعاقلهم، فتلاشت الدولة الأموية ولوحقت بقاياها في الصحراء ونالهم التنكيل، وقتل آخر ملوكهم (مروان بن محمد الجعدي).

اجتمع رأيهم على انتخاب عبد الله بن محمد بن علي السفاح أول حكام بني العباس الذي تولى الحكم في الكوفة سنة (١٣٢هـ)، فبدأ شوط إرهابي جديد؛ ملاحقة العلويين وغيرهم من الثوّار، مصادرة حقوق الرعية، إثقال كاهلها بدفع الرسوم والأموال، الإرهاب والتخويف، ضياع ملامح الإسلام من الحياة السياسية والاجتماعية، البذخ والحفلات والإسراف، تردّي الوضع الاقتصادي للناس، القتل على الظنّة والتهمة... وغير ذلك.

عاش الإمام الكاظم (ع) ما يقرب العشرين سنة مع والده (ع) وهو يرى انحراف الدولتين وضياع حقوق الرعية وهدر كرامة الإنسان ولواعج والده وانهيار الحضارة الدينية. كل ذلك كان يتبرمج في ذهنه بدقة حاملا خلفيات المشهد ودوافعه والمشاريع التي يمكن أن تشخص حلولا للواقع ورؤىً للاصلاح.

ومن الطبيعي أن تتكون خلال هذه الفترة حلول في ذهنية الإمام (ع) بما يتناسب مع الأفكار والتقاليد التي رسختها الحكومات المتعاقبة لبني العباس، فـ(إنّ الناس تحكمهم تقاليد شديدة، ويتوارثون أفكارا يحتاج نقدها ووزنها إلى زمان غير قصير. بل إن الأهواء التي تصرف البشر لها سلطان محيط، والخلاص منها لا يتمّ بين عشية وضحاها)[١]، ولهذا اتخذ الإمام مبدأ الصمت مع السياسة المنصورية.

---

(١) محمد الغزالي، علل وأدويه، ص ٤٣.

السياسة المنصورية وصمت الإمام

بعد وفاة أبيه الصادق (ع) واكب الإمام عشر سنوات من حكم المنصور الدوانيقي، إتسمت بالصمت والتقية على الرغم من إجرامية المنصور واستهتاره بالقيم الإسلامية. وقد ذكر لذلك مجموعة من الأسباب يمكن اختزالها بما يلي:

أولاً : استخدام المنصور لسياسة خاصّة في جذب العلماء الذين يؤمنون بشرعية خلافته، وإحلالهم في مقامات عالية كما فعل مع مالك بن أنس مؤسس المذهب المالكي. وكان يغدق عليهم بالهبات والعطايا، وهذا ما كان له فعله في امتصاص النقمة الجماهيرية أولا، واستمداد الشرعية لخلافته ثانيا. فخروج الإمام الكاظم (ع) في مشهد من هذا النوع وتحرّكه السياسي لفضح السلطة، كان يبدو منظرا غريبا لدى قاعدة عريضة من أبناء الأمّة.

ثانياً : تفرّق كلمة الشيعة بعد الإمام الصادق (ع) الذي لم يعلن عن إمامة مَنْ بعده إلا لخاصّة الشيعة، الأمر الذي أدّى الى صعوبة تقبّل إمامة موسى الكاظم (ع) وانتشارها في الوسط الإجتماعي. وقد مارست السلطة آنذاك دورا كبيرا في إخفاء أمر إمامته وصرف الأنظار الى عبدالله الأفطح أو إسماعيل إبنَيْ الإمام الصادق (ع) في محاولة لبثّ الاضطراب في واحدةٍ من أهم عقائد الشيعة (الإمامة)

مما من شأنه أن يعيق حركتهم للمطالبة بحقوقهم ورفع الحيف والظلم عن المجتمع.

ثالثاً : إنصراف الإمام الكاظم (ع) في بادئ الأمر الى مواصلة المشروع العلمي والفكري الذي بدأ به الإمام الباقر (ع) وبلغ أوج عظمته في عهد الإمام الصادق (ع). وهذا ما نراه واضحا في إسهام الإمام في ترشيد الرؤى العلمية وتخريجه لكادر مسؤول واع لدوره في الحياة الإسلامية كما سنرى في القسم الثاني من الكتاب...

ومن المعروف أن ترشيد الرؤى العلمية والفكرية تجاه الدين هو أساس أيّ تحرك سياسي ونواة أيّ موقف ممكن أن يتخذ إزاء الحكومة القائمة بل إزاء الحياة بأجمعها، إذ إنّ من المقرّر لدى حتى علماء النفس أنّ الدين حينما يُستعان به لصياغة معايير إيجابية جديدة أو منهجا جديدا للعيش، فإنّه يؤثر تأثيرا عميقا في تكامل الشخصية الاجتماعية واتزانها، (فهو يرضي حاجة الإنسان إلى الأمن ويزيد من ثقته بنفسه ويمنحه الجرأة في مواجهة الحياة، ويكون له عزاء وسلوى حين تتأزم الأمور ... فهو لهذا كله ضرورة نفسية وخلقية واجتماعية)[١].

وهكذا، فقد كان الإمام (ع) يدرك خطورة المرحلة والآثار السلبية

---

(١) د. أحمد عزت راجح: الأمراض النفسية والعقلية، ص ٢٦٠.

الناتجة عنها، لكنه كان يقدّر فشل كل تحرّك ثوري آنذاك لعدم توفر عناصره الأساسية وظروفه الموضوعية. ومرّت سنوات حكم المنصور ثقيلة الخطى، مليئة بالخوف والحرمان والقتل والإنتهاك. تجرّع فيها الإمام مرارة الصبر والمحنة وقساوة المشهد الاجتماعي، حتى انزاح الكابوس المنصوري الجاثم على صدر المجتمع عام (١٥٨هـ).

المهدي العباسي.. بداية التحرّك

وتسلم الحكم بعده ابنه محمد المهدي حسب ديدن العباسيين الذين أسسوا نظام الوراثة في الحكم، فبدأ الإمام باستقطاب الرواة والمحدّثين والعلماء، وبثّ الوعي في أذهانهم من خلال تمرير المنظومة المعرفية الدينية الصحيحة والكشف عن ملامح الرؤية الإسلامية في جوانبها المختلفة: فقهاً وأخلاقاً وعقائد ورؤىً إجتماعية، فنجمَ عن ذلك التفافٌ كبير حول الإمام وبروز قاعدة جماهيرية وعلمية أثارت مخاوف السلطة على نفسها وحكومتها، فبثّ المهدي عيونه وجعل الإمام تحت الرقابة الشديدة، ثم استدعاه من المدينة الى بغداد، وتكرر ذلك منه مراتٍ عديدة في محاولة للسيطرة على الموقف.

وحينما سار الإمام (ع) للمرّة الأولى الى بغداد، توجّس محبّوه وخافوا عليه من بطش السلطة العباسية، الأمر الذي يعكس مدى التفاعل الجماهيري مع قائدها الحقيقي، ويدعونا للتساؤل عن ماهية

الفعل الذي أسس وركز هذه العلقة الروحية التي صاعدت دقات القلوب مع ايقاع خطى الركب المغذّ سيره الى بغداد.

قال أبو خالد الزبالي: لما اقدم بأبي الحسن موسى بن جعفر (ع) على المهدي القدمة الأولى نزل زبالة، وكنت أحدّثه فرآني مغموما، فسألني عن السبب،فقلت له: كيف لا اغمّ وأنت تحمل الى هذا الطاغية ولا ادري ما يحدث فيك. فقال (ع):

((ليس عليّ بأس، اذا كان شهر كذا ويوم كذا فوافِني في أول الميل)).

قال أبو خالد: فما كان لي همّ إلا إحصاء الشهور والأيام حتى كان ذلك اليوم، فوافيت الميل،فمازلت عنده حتى كادت الشمس أن تغيب، ووسوس الشيطان في صدري، وتخوّفت أن أشك فيما قال، فبينا أنا كذلك اذ نظرت الى سواد قد أقبل من العراق، فاستقبلتهم، فاذا أبو الحسن (ع) أمام القطار على البغلة، فقال:

((يا أبا خالد... لا تشكّن، ودّ الشيطان انّك شككت)).

فقلت: الحمد لله الذي خلّصك منهم. قال: ((انّ لي عودةً إليهم لا أتخلّص منها))[1].

إنّ هذه العلقة جاءت نتيجة السلوك القيادي الدقيق الذي مارسه

---

(١) الكافي ج١ / باب مولد أبي الحسن موسى بن جعفر(ع) / حديث ٣.

الإمـام (ع) مـع الأمّة بكل طبقاتها بحيث إنحـازت وهـي ملجمة بالنار والحديد الى مرجعيتها الروحية التي تتقارب مع همومها وتطلعاتها. إنـه (ع) مـارس فكرا وسلوكا ينأى بها عن الإبداع للسلطان أو الميل الى برامجه...

إنّ هـذا السلوك القيادي يؤشر ضرورة تحـرّك القادة لاستقطاب ولاء الأمّـة فـيما لـو أرادوا فعـلا إصـلاحيا معاصـرا يـنأى بهـا عـن الإنحـراف والإنجـراف وراء السياسات والمصالح ودعوات التغريب، ولا تتم عملية الاستقطاب إلا بـأن يتّبع أولئك القـادة ستراتيجية خاصّـة تـبدأ بالفـرد وهمـومه وتنتهـي بالمجتمع وقضـاياه ... إنّ حـركة المبادئ وسـيرورتها في الأعمـاق، أعماق الوجدان الشعبي، ترتبط بشكل مباشر بمـا تـؤديه هـذه الحـركة مـن إنجـاز في الواقـع العملـي، ولـذا نجـح الإمـام (ع) في إخـراج المبادئ من مجرد كلام لفظي ينتمي إلى ميدان المعرفة التأملية إلى ميدان الصراع.

ويقـلّ لـدى الجمـاهير الميل إلى الحكـم علـى المبادئ مـن خـلال غيبيّـتها فحسـب، إذْ يترقـب الغالبـية العظمـى مـن الـناس تطبـيقها وثمارهـا العملية. (على المبدأ إذن أن يثبت وجوده بمدى قدرته على إحـداث التغيّـر في الـوقت الحاضـر، وبمـدى نظـرته العملـية إلى المستقبل)[1].

---

(١) د. محمد لبيب النجيحي، مقدمة في فلسفة التربية، ص ٢٩٢.

أمّا التعالي على الأمّة أو العزلة عن همومها وحاجاتها وقضاياها فهو عقيم عاجز عن إنتاج مثل هذا المشهد المذكور التي تندمج فيه نبضة الأمّة بشريان قائدها...

وتدخّلت القدرة الإلهية لتُري المهدي العباسي مناما يتجلى فيه الرسول (ص) أو الإمام علي (ع) ـ على اختلاف الروايتين ـ قائلا له: يا محمد (المهدي) **﴿هل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطّعوا ارحامكم﴾**[1]، فيفزع المهدي من نومه مذعورا، ويأمر بإطلاق سراح الإمام (ع) واكرامه وارجاعه الى المدينة[2].

واقعة (فخّ)، كسر حاجز التقيّة

وفي عهد موسى الهادي ابن المهدي بدأ شوط جديد من الإرهاب هو أقصر وأبشع عهد للعباسيين، إذ كان هذا الحاكم شابّا نزقا مولعا بالخمر، متفنّنا في ممارسة الشهوات، لاهيا عن حكومته بحيث بلغ الأمر بواليه على المدينة الى الحدّ الذي يهين فيه العلويين لأدنى شيء ويقيم عليهم الحدود بدون مبرر حتى تماوج الغضب الشعبي، وتصدى لقيادته الحسين بن علي الملقب بالخير بعد أن استحصل الشرعية من الإمام الكاظم (ع). روى المؤرّخون أنّ الإمام (ع) أوصاه قائلا:

---

(١) سورة محمد / آية ٢٢ .

(٢) انظر تاريخ بغداد ١٣ / ٢٧ ونقلت الحادثة مصادر أخرى كثيرة.

«إنّك مقتول، فأحدّ الضِراب، فإنّ القوم فسّاق يظهرون إيماناً ويضمرون نفاقاً وشركاً، فإنّا لله وإنّا إليه راجعون، وعند الله أحتسبكم من عصبة»[1].

وخرج الحسين بن علي الخير، وأعلن التمرّد على السلطة من على المنبر، والتقى الجيشان فانحسر ضباب المعركة عن استشهاد الحسين وأكثر من مائة من أهل بيته. وقدذكرت المصادر أنّ رؤوس الثوّار قد حزّت وجيء بها الى الخليفة العباسي (الهادي)، فأنشد:

بني عمنا لا تنشدوا الشعر بعدما   دفنتم بصحراءالغميم القوافيا[2]

ولقد استقبلها الإمام الكاظم (ع) بصبر كبير، وتحد جريء، حيث راح ينظر الى الرؤوس وهي تقدم قرابين الى محراب العقيدة والمبدأ، فجعل يؤبّنها ويقول:

«إنا لله وإنا إليه راجعون، مضى والله مسلماً صالحاً صوّاماً قوّاماً آمراً بالمعروف وناهياً عن المنكر، ما كان في أهل بيته مثله»[3].

والذي يمكن استخلاصه من موقف الإمام (ع) إزاء هذه الواقعة

---

(١) الكافي: ج١ / ٣٦٦ / باب ما يفصل به بين دعوى المحق / الحديث ١٨ .

(٢) البحار: ج٤٨ / ١٥٠ / باب مناظراته مع خلفاء الجور / الحديث ٢٥ .

(٣) نفس المصدر: باب أحوال عشائره نقلا عن «مقاتل الطالبيين».

التي تعبّر عن وعي المقاومة الإسلامية للواقع السياسي الفاسد وضرورة تحريك القوى الشعبية لتغييره، هو:

أولاً : إضفاء الشرعية على هذا التحرّك ومنحه صفة إسلامية. مع أنه لا يرى توفر الظروف الموضوعية لنجاح التحرّك بل كان يقدّر فشله عسكريا كما سمعت من تنبّئه ((إنــك مقتول))، لأنه كان بصدد مباركة الجهد الحركي لعصبة مؤمنة تتوخى قصدية شرعية أقرب منها الى العسكرية ((**وعند الله أحتسبكم من عصبة**))، وهذا من شأنه أن يفسح المجال لتحركات قادمة من شأنها أن تطيح بالسلطة وتقلب الموازين.

ثانياً : إن الوجه المقابل لاضفاء الشرعية على تحرّك هذه النخبة، هو فضح السلطة وبيان إنحرافها عن نصاب الشريعة، بل صرّح (ع) بأن هذه السلطة منافقة وفاسقة ومشركة، وهذا سوف يؤدي فعله في تثوير الوضع ضدها، لأن من البداهة إسلاميا وجوب القيام بوجه الظالم وحرمة الركون اليه؛ ((ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسّكم النار))[1].

ثالثاً : كشف أن هذا التحرّك مصداق لفريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وانّ من يقوم بأعبائه يكون أفضل أهله وأصلح

---

(١) هود / ١١٣.

عنصر في مجتمعه «آمــراً بالمعروف وناهياً عن المنكر، ما كان في أهل بيته مــثله»، وفي هذا تقديم للسلوك الحركي على السلوك العبادي، وهو ما يجهله مجتمعنا عن الإمام الكاظم الذي اشتهر بعبادته فحسب حتى سمّـي بالعبدالصـالح وراهـب بـني هاشـم، فيما يتجلـى الـوجه الآخـر (الحركي) للإمـام في هكذا دراسـات كشفية تحليلية، فتتكامل نصـاب الـرؤية للإمـام (ع) مـن خـلال إهـتمامه الواضـح بجـانبي العقـيدة، الروحي والحياتي...

وهكذا ساهم الإمـام (ع) بوظيفته كمرشد روحي للثورة في تعرية ملامح السلطة العباسية الممعنة في طغيانها، وكشف الطريق المضبّب أمـام كلّ حسّ ثوري واع ، حيث خرج الإمام (ع) عن سمت التقية التي كـان يـدأب علـى ممارستها حيـنما لم يكـن هـنالك مجـال لهـا. وهـو خطـابٌ معاصـرٌ مـوجّهٌ لكل الـذين يمارسـون التقـية، حـاثٌ لهـم علـى الخروج الجريء عن سمتها حينما يتطلب الموقف ذلك.

إنّ كلا مـن التقية والموقف الآخـر مـبدآن إسـلاميان، ولكل منهما ظـروفه ومجالـه، ولا يمكـن الخلـط بيـنهما عـند حملـة الوعـي بالواقـع والـدين والمجتمع، مهمـا كلـف ذلـك مـن تبعات. ولهذا أعلن الإمام (ع) عـن وقـوفه بجانـب الحقّ مع أنّ التـبعة كانـت ثقيلة وقـريبة مـن الموت، حيث حملته السلطة العباسية مسؤولية تحـريك الثورة، وأراد الهادي

أن يفتك به قائلا: والله ما خرج الحسين إلا عن أمره، ولا اتّبع إلا محبّته لأنه صاحب الوصية لأهل هذا البيت، فتلني الله إن أبقيتُ عليه، فتدخّل أبو يوسف القاضي، وامتصّ غضب الخليفة[1].

وهكذا، فهنالك بالإضافة إلى التدرّج في شجب واستنكار الممارسات السياسية والاجتماعية الخاطئة، توجد مرحلية وهي مطابقة الموقف لشروط الواقع الموضوعي، وهو يعبر عن مدنية الإسلام ومنطقيته في تصحيح الانحراف الشخصي والاجتماعي وهذا التشريع للمعارضة وتقويم الانحراف يعبّر عن مستوىً حضاري متميز وراق في فكرته وأسلوبه .. يدرك ذلك كلّ ناظر إلى الحياة المدنية والاجتماعية والسياسية للعالم[2].

والدرس الآخر في هذه الحادثة أنّ الإمام (ع) ـ شأن القادة الربّانيين ـ هرع الى الدعاء حينما وصله نبأ تهديد الخليفة، ولم يتوسّل بالأسباب الدنيوية، الأمر الذي فتح له أبواب السماء مستجيبة لكلماته المنقوعة بالخوف من القدرة الإلهية وحدها، والآملة لما عندها وحدها، فاختُرم أجل الخليفة الهادي، ولم يدم على الحكم سوى سنة وشهرين، وشمر الإمام (ع) عن ساعديه لاستقبال عهد هارون بزنزاناته المرعبة وطواميره المظلمة...

---

(١) بحار الأنوار: المصدر السابق.

(٢) علي الكوراني: أسمى الفرائض وأشرفها، ص ٥١.

الإعداد المحكم للتحرّك

لقد بدأت في عهد هارون الملقب بالرشيد ملامح التحرّك الذي قاده الإمام الكاظم (ع) بالتبلور والظهور بشكل جلي، حيث بدأ الصراع بينه وبين السلطة العباسية يبلغ أوجه من خلال ثلاثة محاور:

المحور الأول: بدأ الإمام (ع) بقيادة حركة علمية واسعة النطاق ينضوي تحت لوائها كثير من الطلاب ورواة الحديث وحملة الفقه، تخرّجوا من مدرسته علماءً وعاة مخلصين، يتوقدون فهماً للواقع ويتحرّقون من أجل إصلاحه[1].

المحور الثاني: بثّ بعضهم في أوساط السلطة ومؤسساتها التنفيذية كعلي بن يقطين الذي وَزَر لهارون، ولم يأذن له بترك الوزارة حينما استأذنه ابن يقطين في تركها، قائلا:

> **((لا تفعل، فانّ لنا بك اُنساً، ولإخوانك بك عزّاً، وعسى الله أن يجبر بك كسيراً أو يكسر بك نائرة المخالفين عن أوليائه))[2].**

المحور الثالث: بثّ كثيرا من الوكلاء في الأمصار والأصقاع،

---

(١) أنهاهم الحسني الى أكثر من ثلاثمائة شخص. انظر سيرة الأئمة الاثني عشر:٢/٢٧٩.

(٢) البحار: ج٤٨/١٣٦/باب مناظراته مع خلفاء الجور/ الحديث١٠، نقلا عن كتاب ((حقوق المؤمنين)).

فحُملت إليه الأموال الطائلة من الحقوق الشرعية، مما يؤمّن الجانب الاقتصادي للتحرّك السياسي والإجتماعي.

وأمّا المؤشرات والدوال على كون الإمام (ع) كان بصدد قيادة حركة مدروسة تحاول الإطاحة بالحكم القائم آنذاك ، فهي كثيرة، منها:

١ـ قوله لعلي بن يقطين:

((أو يكسر بك نائرة المخالفين عن أوليائه)).

٢ـ تعذيب محمد بن أبي عمير من قبل السلطة العباسية ليدلهم على أسماء أصحاب الإمام (ع).

٣ـ محاصرة الإمام اقتصاديا من قبل السلطة العباسية، وقول هارون لولده المأمون: فانّي لو أعطيتُ هذا ما ضمنته له ما كنت آمنه أن يضرب وجهي بمائة ألف سيف من شيعته ومواليه، وفقر هذا وأهل بيته أسلم لي ولكم من بسط أيديهم[1].

٤ـ إنتشار أصحاب الإمام (ع) ومريديه في خراسان والري وهمدان ومصر والمغرب والحجاز وغيرها من البلدان، ومالقوه من دعم وتأييد شعبي، حتى قيل انّ الوضع كان أشبه بدولة داخل الدولة الرسمية الظاهرية. ويعبّر عن قلق السلطة العباسية ما قاله أحد عملائها

---

(١) عن ((الثائر والسجن)): حسن الصفار/٤٤.

للرشيد: ما ظننتُ أن في الأرض خليفتين حتى رأيت موسى بن جعفر (ع) يُسلم عليه بالخلافة، وانّ الأموال تحمل إليه من المشرق والمغرب[1].

٥ـ قول داود الرقي للإمام (ع): جُعلت فداك... انّه والله ما يلج في صدري من أمرك شيء إلا حديثا سمعته من ذريح يرويه عن أبي جعفر (ع) (الصادق):

«سابعنا (الكاظم) قائمنا إن شاء الله».

قال (ع):

«صدقت وصدق ذريح وصدق أبوجعفر (ع)... يا داود ابن أبي كلدة، أما والله لولا انّ موسى قال للعالم : ستجدني إن شاء الله صابراً، لما سأله عن شيء، وكذلك أبوجعفر (ع) لولا أن قال: إن شاء الله لكان كما قال»[2].

هذه وغيرها من المؤشرات تدلّ على انّ الإمام (ع) كان بصدد تحرّك إصلاحي بهدف استبدال الحكم القائم والإطاحة به، لولا إختلال الظروف الموضوعية للثورة.

وكان الى جانب عبادته يتابع الأحداث ويعدّ الخطط ويبني الأمّة

---

(١) نفس المصدر: ٤٦ .

(٢) عن المصدر السابق: ٤٧.

بناءً داخليا متماسكا يؤهلها لخوض المعترك مع السلطةحينما تتأتى ظروفه الموضوعية...

وهذا ما يضعنا أمام حقيقة مفادها انّ التحرّك الإصلاحي والعمل التغييري لا يشترط أن يكون آنيا مرتبطا بنتائجه القريبة والمباشرة، بل يكفي في أداء فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أن يُعدّ للتغيير المستقبلي علميا واقتصاديا وتخطيطيا، حتى لا يتاح للأمّة وعلمائها أن يعتذروا باختلال موازين القوى وظروف التحرّك، فيكون ذلك مدعاة للتقاعس والركون للظلم، وتتوافر الأجيال في تناسلها على هذا المشهد الوبيء فتخفت بارقة الأمل في التغيير والنهوض.

هذا فيما يشكل الإعداد المستقبلي نواة التغيير القادم وبذرة الصيرورة للجيل اللاحق أو الأجيال اللاحقة. وهو ذات الفعل الذي مارسه الإمام (ع) من خلال مواقفه وأفكاره.

المشروع السياسي .. رأي وتقويم

وبعد إيرادنا لملامح سياسية من هذا النوع طبعت حركة الإمام (ع) في الوسط الجماهيري، والتي قادها في خضمّ مواجهة الحكم العباسي القائم آنذاك، رغم ما قيل عن انزوائه وانصرافه عن المشروع السياسي، إلى المشروع العبادي والتربوي ... نخلص إلى

القول بأنّ الانصراف الشائع لم يكن عن المشروع السياسي إلى التطبيع ـ كما يفهم البعض ـ، إنّه انصراف عن آنية المشروع وتجسيده الفعلي بسبب اختلال بعض الظروف الموضوعية كما سمعت من ثنايا هذا الفصل اعتمادا على المصادر التأريخية المعتبرة...

هذا، فيما زخرت الحركة الكاظمية بإعداد سياسي محكم للتحرّك ومباركة لجهد القوى الثورية الممهّدة، مع إرساء حالة تنظيمية تعدّ للحاضر الممكن والمستقبل القادم .. وهذه هي السياسة بالنظر إلى تنوّع أدوار الأئمة (عليهم السلام) ووحدة هدفهم، وهي السياسية بالمفهوم الشرعي، إذْ من الخطأ تسرّب مفهومها الإصلاحي أثناء عملية القراءة الحديثة لحياة الأئمة (عليهم السلام) وقصره على مفهومه المعاصر المساوق للتحرّك من أجل الاستيلاء على الحكم والتربّع على عرشه ...

هذا ما يصلح مدخلا لمناقشة بحث العلامة السيد علي الأمين المقدّم للندوة العملية التي أقامتها مؤسسة الإمام الخوئي الخيرية بالذكرى السنوية لولادة الإمام الكاظم (ع) عام ٢٠٠٢م، إذ ذكر السيد الأمين في بحثه ما نصّه:

«ولم يكن هناك ما يشير إلى إعداد بحجم القضيّة السياسية المطلوبة حتى على مستوى القاعدة الشعبية في زمان الإمام الكاظم

الذي قضى مدّة طويلة في السجن دون تحرّك يذكر من قبلها لإخراجه من السجن أو إثارة قضيّة لدى عموم الشعب. وهذا يشير بوضوح إلى ابتعاد الإمام الكاظم (ع) عن مشروع القيادة السياسية، واستمرّ على نهج أبيه الصادق (ع) في نشر العلم والمعرفة دون تطلع إلى حكم وخلافة»[1].

واستدل لذلك بما يلي:

١ـ رواية الخطيب البغدادي ـ المنقولة سابقا ـ حينما استدعاه المهدي العباسي وعانقه وأجلسه إلى جانبه، لما رأى أمير المؤمنين علي (ع) في المنام وهو يقرأ:

«**فهل عسيتم أن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطّعوا أرحامكم**».

وفي الرواية أنّ المهدي العباسي طلب من الإمام الكاظم (ع) أن يؤمّنه من الخروج عليه، فردّ الإمام (ع):

«**والله ما فعلت ذلك أبداً ولا هو من شيمتي ..**»

٢ـ كلام السيد هاشم معروف الحسني في كتابه «سيرة الأئمة الأثني عشر»: «ويبدو من المرويات التي تعرّضت لتأريخه أنه بقي طيلة حياته يتقي شرّ العباسيين ولا يسمح حتى الشيعة وتلامذته من

---

(١) دراسة في حياة الإمام موسى بن جعفر (ع)، ص ٤١، منشورات مؤسسة الإمام الخوئي.

الاتصال به بالشكل الذي اعتادوه في عهد أبيه، وحتى أنّ رواة أحاديثه قلما كانوا يروون عنه باسمه الصريح، وبقي الإمام (ع) على نفس النهج التعليمي بعيدا عن السياسة في زمن الرشيد الذي ضيّق على الإمام الخناق منتقلا به من سجن إلى سجن حتى قضى شهيدا بالسم الذي دسّه إليه)).

٢ـ كلام الشهيد مرتضى مطهري في كتابه ((من حياة الأئمة)):

((وكان الرشيد يحسّ بالخطر من ناحية الإمام الكاظم (ع) مع أن الإمام لم يكن أبدأ بصدد القيام والثورة، ولم يقم بأيّ خطوة في اتجاه تشكيل حركة أو تنظيم يهدّد السلطة القائمة)).

أمّا ما استدل به البعض من وجود مشروع سياسي لدى الإمام (ع) من خلال الرواية المذكورة حول قضيّة صفوان الجمال ومنع الإمام (ع) له من إكراء جماله للظلمة، فالسيد الأمين يناقش في سندها ودلالتها اعتمادا على ما انتهى إليه السيد الخوئي في ((معجم رجاله)) و((مصباح الفقاهة))... ليخرج من كل ذلك بأن موقف الأئمة (عليهم السلام) من المشاركة في الحكم والسلطة القائمة في عصورهم موقف إيجابي، قائلا:

((وهذا يعني أنّ الأئمة قد وقفوا موقفا إيجابيا من مسألة المشاركة في السلطة إنْ لم نقل بأنه كان موقفا على نحو الوجوب قضاءً لحوائج

المؤمنين، فإنّ الخلق عيال الله وأحبّهم إليه أنفعهم لعياله، ناهيك عن الروايات الدالة على لزوم الاهتمام بأمور المسلمين))[1] .

والظاهر أنّ السيد الأمين يحاول بذلك أن يمهّد لإرساء توجّه عام لدى الأئمة (عليهم السلام) يتمثّل في (الإعداد في تلك المرحلة من حياتهم (عليهم السلام) لتقبّل غياب القيادة الموعودة إيمانا منهم (عليهم السلام) بغياب العناصر التي تؤدّي إلى نجاح المشروع الشامل والموروث والذي أوكل تحقيقه إلى الإمام المهدي (عج) بإقامة الدولة الدينية، فلم يبق في عصرهم وعصر الغيبة سوى مشروع المشاركة في مشروع الأمّة الموجود من دون أن يكون لهم ولشيعتهم مشروع سياسي يختصّون به وينفردون به عنها ..)[2] .

وأنت خبير بأنّ الدخول في مناقشة هذا الرأي يستدعي بسط الكلام في مقولات عدّة لا يسع المجال لذكرها هنا، إذ ترتبط هذه القضيّة بمحور السياسة الإسلامية والموقف من نظام الحكم في الإسلام والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وآلياته المتجددة عبر العصور، وموقف الأئمة (عليهم السلام) وشيعتهم في سياق الحركة المهدوية العظيمة، ودورنا السياسي في عصر الغيبةالى غير ذلك .. لكن هذا لا يمنع من إيراد ثلاث ملاحظات عامة:

---

(١) المصدر السابق، ص ٤٥.

(٢) المصدر السابق.

أولاً :إنّ إسقاط المفاهيم والمفردات المعاصرة في سياق العملية التحليلية لحياة الأئمة (عليهم السلام) ينبغي أن يكون محايدا ومنصفا ومقاربا لما يوازيها في حركتهم (عليهم السلام)؛ فكلمة (التطبيع) المستخدمة من قبل السيد الأمين لا تنطبق على الدور السياسي الذي مارسه الإمام الكاظم (ع) مع السلطة القائمة آنذاك، إذْ تشير كلمة التطبيع إلى التعايش مع السلطة والقبول بسياسة الأمر الواقع، في مقابل الحصول على حق جزئي ومطلب معيّن، فيما رفض الإمام (ع) هذه الجزئية والمطلبية ـ وسيأتي ذلك في الفصل القادم مع نماذجه التاريخية كما رفض التعايش بأيّ أشكاله، مما يفسّر لنا اعتقالاته المستمرة من قبل السلطة وتقييد حركته (ع) ... كما يفسّر لنا عدم رضوخه (ع) لإعانة تلك السلطة حتى على مستوى التعاون التجاري (إكراء الجمال لهم ليحجّوا بها).

وكيف يناقش السيد الأمين في سند ودلالة رواية صفوان الجمال ويأخذ عن الخطيب البغدادي دون أن يناقش في السند ولا في الدلالة، فالرواية في ((تاريخ بغداد)) للخطيب دون سند متسلسل، والذيل الذي ذكره من ضمان الإمام (ع) لعدم الخروج على السلطة سابقا ولاحقا غير مذكور في باقي المصادر التاريخية...

ثانياً ؛ إنّ مفهوم السياسة لدى الأئمة (عليهم السلام) بدورهم مشرّعين للحياة العامة، لم يقتصر على السعي المحموم الشامل

للاستيلاء على الحكم ـ كما توحي به الكلمة في دلالتها المعاصر ـ بل عبّر عنها النبي الأعظم (ص) حينما ربط بين العقيدي والسياسي من خلال أداء فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهي فريضة قائمة إلى يوم القيامة تستدعي ضرورة رفض كل فساد أو تخريب أو تحريف. كما أنّ هذه الفريضة تختلف في آليات تطبيقها تبعا للظروف الموضوعية المحيطة بممارسها. وقد تحرّك الإمام (ع) ـ كما مرّ عليك ـ لا لتطبيق الفريضة فحسب، بل لتخطيط التحرّك السياسي ورسم ستراتيجية خاصّة للمشروع التغييري لولا اختلال بعض تلك الظروف، الأمر الذي يفسّر حديث «سابعنا قائمنا إنشاء الله». من هنا لا أختلف مع السيد الأمين فحسب، بل مع الشهيد مطهري وهاشم الحسني في ذهابهما إلى ابتعاد الإمام (ع) عن السياسة، خصوصا مع الشهيد مطهّري الذي لم يسجّل آيّة خطوة (ع) للإمام باتجاه تشكيل حركة أو تنظيم يهدّد السلطة القائمة!

والسبب في اختلافي مع هؤلاء الأفاضل هي الأمور والقرائن المذكورة في هذا الفصل من تعذيب ابن أبي عمير من قبل السلطة ليدلهم على أسماء الشيعة من أصحاب الإمام (ع) إلى تهيئة الإمام (ع) للظرف الاقتصادي إلى حديث «سابعنا قائمنا إنشاء الله» إلى الاعتقالات المستمرة إلى عدم السماح لعلي بن يقطين بترك الوزارة وقوله له «أو يكسر بك نائرة المخالفين» إلى غير ذلك من القرائن التي سنذكرها في الفصل اللاحق الذي يتحدث عن مواقفه ودلالاتها.

هذا مع الأخذ بنظر الاعتبار أنّ مفهوم السياسة لدى الأئمة (عليهم السلام) يختلف عمّا تألفه الذهنية الحديثة (فالعمل في جوانب الحياة الأخرى الدينية والاجتماعية والفكرية والتربوية هو عمل سياسي أيضا. فإذا كان السيد الأمين يرى أن الأئمة قد تخلوا عن دورهم السياسي بلجوئهم لهذه الأساليب سعيا للتطبيع مع الحكام، فإنّ الحكام أنفسهم لم يفهموا من هذا الدور سوى تربّص وانتظار وتهيئة فكرية وتربوية لابدّ أن تعقبها مواقف سياسية، لذلك استمرّ اضطهادهم لهم وازداد عسفهم لأصحابهم، فإذا كانت هذه السياسة لا تحقق أيّ غرض أو منفعة حقيقية فلماذا يلجأ إليها الأئمة، ذلك على افتراض أنّ هذا هو ما قاموا به)[1].

ثالثاً؛ إنّ المشروع السياسي للأئمة (عليهم السلام) على اختلاف أدوارهم هو متمثّلٌ ومختزلٌ بمفردة (التغيير)، التغييرالحضاري الذي ينطلق من وعي الفرد لمبادئ دينه وآليات تطبيقها الصحيحة والمشروعة وتنتهي بإسقاطها على المساحة التخريبية في كل واقع فاسد ومخرّب، أي تبدأ بالفرد وإرادته الذاتية على التغيير وتنتهي إلى تقرير نوعية الحياة الإسلامية وإرساء نظام الحكم العادل فيها. وهذا ما لا يقبل التجزئة ليقال إنّ الإمام الحسين (ع) سلك طريقا ثوريا انقلابيا وسلك غيره من الأئمة (عليهم السلام) طرقا تعليمية أو تربوية أو

---

(١) عادل عبد المهدي، مناقشة البحث المذكور. انظر المصدر السابق، ص ٦٩.

اجتماعية أخرى، فهو هدف واحد تختلف آليات تطبيقه وفقا لظروف كل إمام، مما يهيئ لأتباعهم وشيعتهم التفكير بآليات متعددة لمواجهة الحياة وتحدياتها ومنها نظام الحكم الديكتاتوري.

وهنا عاد السيد الأمين ليناقض ما طرحه أولا، فقال في جوابه على أحد الأسئلة: ((لم يكن المقصود من تخلي الأئمة (عليهم السلام) هو عدم مواجهة الظلم والاستبداد والسعي إلى تحقيق مصالح الشعوب، وإنّما كان المقصود أنّ الأئمة (عليهم السلام) لم يعُد لهم مشروع يخصّهم بما هم أئمة، وهكذا أرادوا لشيعتهم))[1].

وقال في جواب سؤال آخر: ((ثم إنّ المقصود من كلمة التطبيع الواردة في البحث هو التطبيع داخل جسم الأمّة الإسلامية والعربية من خلال التركيز على الأسس الثابتة والاهتمامات المشتركة، وليس المقصود هو التطبيع مع أعداء الأمة كما هو واضح))[2].

فهذا الذي اعترف به السيد الأمين مؤخرا هو المشروع السياسي الذي يتبنّاه الأئمة (عليهم السلام) وسعوا إلى تطبيقه في عصورهم بآليات متعددة، فإذا كان الإمام الصادق (ع) أعلن أنه (لا الزمان زماني ولا الرجال رجالي)، فإنّ الإمام الكاظم (ع) أنشأ رجالا وعاة قادرين على مواجهة النظام القائم آنذاك على النحو الذي مرّ عليك، ولم يقتصر

(١) المصدر السابق، ص ٥٩.

(٢) نفس المصدر، ص ٦١.

دوره على الجانب التعليمي والتربوي الذي أجبر الإمام الصادق (ع) على ممارسته لظروف سياسية وموضوعية ليس هذا مجال بحثها...

ثم إنّ هذا الهدف الواحد لا يفرّق بين المستبدين داخل الأمّة العربية والإسلامية وبين المستبدّين خارجها، لأنّ التطبيع ـ ببساطة ـ ينبغي أن يُمارس مع حكومة عادلة تؤمّن حقوق الناس وحرّياتهم، لا مع الظلمة والمستبدين. وهذا ما يفسّر لنا رفض الحكومات في عصر الإمام الكاظم (ع) لنوعية التطبيع الذي يريده، فأودعته السجون حتى مات شهيدا بيده فتائل الوعي المشتعلة القابلة للإضاءة والتفجير والاشتعال في وجه أيّ نظام مستبدّ قادم ...

فالمطلوب هو نظرة أكثر قدرة على استكناه المكونات الفكرية لحياة الأئمة (عليهم السلام) دون ليّ لعنق النصّ ولا إسقاط لمقولات عصرية محدودة على مضامينها، نظرة موضوعية شاملة ـ غير تجزئيية، فشؤون الحياة ـ وفق رؤاهم (ع) مترابطة لا يوجد بينها فصل إلا في الجانب التصوّري، لأن مسيرتهم شاملة وكادحة إلى الله الواحد القهّار...

الفصل الثاني

الإصرار على المبدأ .. مواقف ودلالات

الموقف الأول: الجرأة في الحق

روى الخطيب البغدادي في تأريخه عن عبدالرحمن بن صالح الأزدي، قال: حجّ هارون الرشيد، فأتى قبر النبي (ص) زائرا له، وحوله قريش وأفياء القبائل، ومعه موسى بن جعفر (ع)، فلمّا انتهى الى القبر، قال: السلام عليك يا رسول الله يا ابن عمّي، إفتخارا على من حوله، فدنا موسى بن جعفر (ع) فقال: ((**السلام عليك يا أبه**)) فتغيّر وجه هارون، وقال: هذا الفخر يا أبا الحسن[1].

وتحليل هذا الموقف بالنسبة الى الخليفة أولا، أنه عكس رغبة في كسب تأييدين، إجتماعي وشرعي. التأييد الإجتماعي يتجلى في جلبه معه (قريش وأفياء القبائل) حيث يظهر فيه هارون صاحب قاعدة إجتماعية مؤلفة من عيون المجتمع ورؤسائه تصطحبه حبّا به وتأييدا لحكومته. فيما يتجلى التأييد الشرعي في إبراز انتمائه لصاحب الرسالة حينما يزوره ويعلن أنه ابن عمّه، وهذا يستبطن إرائة السير على نهجه وقربه من هذا الكيان الطاهر.

---

(١) تأريخ بغداد: ج١٢/٢٧.

ومن هذين التأييدين يعمد هارون الرشيد الى استغلال هذا التجمع والاستفادة من هذه الفرصة، لتقوية عرشه واستمداد الشرعية له أمام جمع غفير من الناس، بحسّ سياسي واضح وعقلية دبلوماسية.

ولأنّ المسألة هنا تتخذ بُعدا جماهيرا إعلاميا مؤثرا، تنبّه الإمام (ع) وخرج عن المألوف والسائد في عرف أولئك الذين يقدمون مع ركب السلطة، ويدأبون على ممالأتها في كل شيء سواءً الحق أو الباطل، ليؤسس بعيدا عن سمت وعاظ السلاطين منهجا إصلاحيا ناصحا للحكومة ومعرّضا برؤها السياسية الخاطئة واتجاهها البراغماتي المقيت، فأطلق صيحته «**السلام عليك يا أبه**» لئلا تنطلي اللعبة السياسية على السذّج من الناس وقاصري الرؤية من الزعماء ، حيث استبطن هذا الخطاب الفرق الواضح، ليقول أنني الأقرب منك الى هذا الكيان والأكثر التصاقا بنهجه.

كما انّه يستبطن ـ من خلال هذه الأقربية ـ صرخة من اجل بكاء الحق الضائع وإقصاء أهله الحقيقيين عنه، وهي الخلافة. فمادام هارون ابن عمّ صاحب الرسالة فكيف يقدّم على ابن صاحب الرسالة، ويكون هارون هو الخليفة... طبعا الخلافة لا بما هي ملك دنيوي بل بما هي منصب شرعي وخلافة إلهية في الأرض.

إتخذ الإمام (ع) موقفه هذا وهو يعلم أنه لا يُرضي خليفة الوقت ،

بل كان يضع في حسابه أن يواجه مصيرا دمويا من أولئك العاضّين على الملك بأسنانهم، فلم يعبأ بالنتائج المترتبة على تصريحه بالحقّ وهو المعروف بعبادته وانزوائه عن السلطة وزخارفها، ولكنه يقدّر فعل ذلك وتأثيره في الوسط الإجتماعي مع تقديره للنتائج الجسدية المترتبة عليه. وفعلا اعترف الخليفة بأن هذا الفخر أبلغ تأثيرا وأكبر قدرا، قائلا: هذا الفخر يا أبا الحسن!

كل الحضارات المتطوّرة حينما ننقب في ماضيها بحثا عن عوامل نهوضها، يتمثّل لنا الوعي كعنصر أساسي في صناعتها، فـ(التطوّر الحضاري يبدأ دائما مع أوّل بوادر الوعي .. وتفترق الشخصية الواعية بوثوقها وقدرتها على قراءة الأشياء وتفسيرها وممارسة النقد بشجاعة. والإنسان الواعي لا يتهيّب الممنوع، وإنّما يتوغل في الشك حتى يفهم الواقع. ولا تضلله الشعارات، ولا يُستغلّ ...)[1].

ولازال وعاظ السلاطين والسائرون في ركب حكوماتهم مؤيدين لها حقا أو باطلا، دون أن تصدر منهم صيحة معارضة حتى لو أريقت الدماء وهتكت الأعراض وقلبت المفاهيم، فيما يهتف هذا الموقف بدلالاته الكبار في حياتنا المعاصرة...

---

(١) ماجد الفرباوي: إشكاليات التجديد، ص ١٢.

الموقف الثاني: عدم قبول تجزئة الحق

روي أن المهدي العباسي ـ وفي رواية أخرى هارون الرشيد ـ أراد أن يردّ فدكا الى الإمام (ع) فرفض قبولها، ولما ألحّ عليه، قال (ع):

((لا أقبلها إلا بحدودها)).

قال: وما حدودها؟ قال (ع):

((الحدّ الأول: عدن ـ فتغيّر وجه الخليفة العباسي ـ والحدّ الثاني: سمرقند ـ فاربدّ وجهه ـ، والحدّ الثالث: أفريقيا)).

فقال الخليفة: والحدّ الرابع؟ قال (ع):

((سيف البحر وما يلي الخزر وأرمينية)).

فقال : لم يبق شيء، فتحوّل الى مجلسي! فأجابه الإمام (ع):

((لقد اعلمتك بأني إن حددتها لك لم تردّها))[1].

إنه (ع) يتمثّل الإصرار موقفا يرفض تجزئة الحقّ السليب، ويتمرّد على تخدير النَفس الثوري بقطعة من الأرض. تلك الأساليب والسياسات التي يمارسها السلطات في واقعنا الراهن لإخماد صرخات الحقّ في أعماق القوى التحررية، كما يمارسها المتحررون أنفسهم

---

(١) المناقب لابن شهرآشوب: ج٤/٣٢٠/فصل (في معالي أموره(ع)).

حينما يطول عليهم الأمر وتستعصي عليهم الظروف... فيما يؤكد الإمام (ع) على أنّ علينا أن نختار أحد الرهانين، إما المواجهة واستمراريتها، وامّا ادراك الحقوق بتماميتها. انّ القضية ليست مساومة على قطعة من التراب، ولا تجارة يتوخّى منها الربح المادي. انّها قضية مبدأ يترشح بعد تجريد هذه الأشياء من قيودها المادية، والمبدأ لا يقبل المساومة ولا المهادنة، انّه موقف من صراع أزلي تمتدّ جذوره الى قلب التأريخ، وتعانق إنسانها الحاضر وتتداخل في عمق شخصيته الرسالية.

أما التنازلات الجزئية فهي (سياسة مطلبية مترددة)، تشكل خطرا كبيرا على الكادحين من أجل الانعتاق والتحرر، يتمثّل ذلك الخطر بإمكانية الإدمان على نزعة التنازل والاستسلام التي تدمّر البنى التحتية للإنسان المكافح، فتشلّ فيه قدرته على الاستمرار في المواجهة...

قارن هذه المنهجية بمنهجية التنازل والعيش على الهامش، الذي يمارسه العرب والمسلمون اليوم؛ إذْ عادوا بعد سلسلة من النكوصات والتنازلات يفكرون في كيفية الخروج من هذا الوضع الهامشي، وفك حالة العزلة (من دون خوف ومن دون شعور بالنقص. ويستدعي ذلك الشروع في حوار شامل وبنّاء، رسمي وأهلي معا، مع المجتمعات الأمريكية والأوروبية رسميّها وأهليّها. فهذه هي الطريقة الوحيدة

لتغيير طبيعة العلاقات التي تربطنا معها، وفرض أنفسنا كشريك شرعي وكامل العضوية في المفاوضات الدولية والنقاشات العالمية حول مستقبل البشرية)[1].

الموقف الثالث: المبدأ خلف القضبان

اعتقل الإمام الكاظم (ع) مرات عديدة، واقتيد راسفا بالحديد، وكثيرا ما كان ينجو من بطش السلطة بتدخل يد القدرة الإلهية التي لم تنفك عن تسديد خطاه وحماية كيانه المقدس...

وفي تلك الطوامير المظلمة كان الإمام (ع) يمارس مبدأه بكل وعي وعمق، فيؤثر ذلك على من حوله من السجّانين فيخشون من إيذائه والتنكيل به خوفا ورُعبا من سطوة الحقّ وقداسة الكيان. لقد حوّل الإمام (ع) السجن الى مسجد، والإعتقال الى فرصة عبادية، والسلوك الى طاقة إشعاعية قوية... حتى كتب عيسى بن جعفر بن المنصور والي البصرة من قبل الرشيد، يقول: خذه منّي وسلمه الى من شئت وإلا أخليتُ سبيله، فقد اجتهدتُ أن آخذ عليه حجّة فما أقدر على ذلك، حتى انّي لأستمع إليه اذا دعا لعله يدعو عليّ أو عليك، فما أسمعه يدعو إلا لنفسه ويسأل الله المغفرة والرحمة[2].

---

(١) برهان غليون: العرب ومعركة الإسلام، ص ١٢، سلسلة نقد السياسة العملية.

(٢) المناقب لابن شهر آشوب ج٤: ٣٢٧، (فصل في وفاته).

كثيرٌ هم الذين يذوبون في بودقة الإنصهار غير انّ المعادن الأصلية هي التي تتجلى بنار المحنة، ويبدو الانتماء الحقيقي للجذور المبتلاة من خلال طول المحنة وشدّتها وأليم العذاب. وهنا يقاس مدى وعي الفرد لمبدئه وإخلاصه لفكره، ويتكشف ذلك من خلال الناتج السلوكي في الظرف الحادّ. اذ يحوّل الإمام (ع) سجنه الى فرصةٍ للتواصل مع القوّة الإلهية القادرة القاهرة، التواصل الكفيل بحلّ إشكالية الظرف الراهن الرازح تحت المأساة:

((اللهمّ إنّك تعلم انّي كنت أسألك أن تفرّغني لعبادتك، وقد فعلت، فلك الحمد)) [1].

ولازالت هذه الكلمات تضيء في أفق النفس البشرية لآلاف المعتقلين في سجون الظالمين، يرتشفون سبحات التوحيد من هذا الإمام العظيم الذي حيّر السلطات بصبره وعبادته ووعيه للمرحلة المأساوية التي مرّ بها حتى فوّت الفرصة على السلطة من خلال رفضه لكل أنواع الاغراءات وابراز المعادل الموضوعي (الصمود) لمشاريعهم ومخططاتهم، مديما بذلك حركة الأنبياء والصالحين في صراعهم الدموي مع قوى الشر وخصوم الإنسانية.

لم يكتف الإمام (ع) بلحظة هدوء كيما يعود إلى تمام الطمأنينة،

---

(١) المناقب: ج٤ / ٢١٨ (فصل في معالي أموره).

بل كان حزنه (ع) من النوع الثائر المتمرد الذي يمكن أن نفسره على مبدأ: ((إنّ لحظة واحدة يتجلى لي فيها الله لتوازن سنوات من الألم)) أو مبدأ ((الألم هو ذلك الفداء الذي يجب أن يقدّمة الممتازون للحياة والوجود))[1] ... فالإقبال على الحياة المقدّسة التي تعيش على الألم والقلق الروحي الخصب المثمر لتغيير الواقع أو تسجيل الموقف، هو ما كان يساور حركة إمامنا (ع) أثناء الاعتقال التي لم تختلف زمنيتها ومعايشتها وستراتيجيتها عن مجمل شريط حياته المقدّسة..

جاء ردّه للهدية التي بعثها هارون الرشيد صرخة زلزلت البلاط العباسي: ﴿بل أنتم بهديتكم تفرحون﴾[2]، وذلك حينما بعث له الرشيد جارية ذات جمال ووضاءة لتخدمه في السجن، قال (ع):

((لا حاجة لي في هذه ولا أمثالها))

قال الراوي: فاستطار هارون غضبا وقال: إرجع إليه وقل له ليس برضاك حبسناك ولا برضاك أخذناك واترك الجارية عنده وانصرف. قال: فمضى ورجع ثم انفذه هارون مرّة أخرى ليستفحص حالها، فرآها ساجدة لربّها لا ترفع رأسها، وهي تقول: قدوس، سبحانك سبحانك. فقال هارون: سحرها والله موسى بن جعفر بسحره[3].

---

(١) عبد الرحمن بدوي: الموت والعبقرية، ص ٩٤ ـ ٩٥.

(٢) النمل / ٣٦ .

(٣) المناقب: ٢٩٧/٤/فصل في خرق العادات له(ع).

وفي الحقيقة انّ الذي سحرها هو ذلك الفكر العظيم للإسلام ورؤيته للإنسان والكون والحياة، لكن لم تبرز للجارية تلك الرؤية بصورتها الحقيقية الناصعة إلا على يدي الإمام (ع)، الأمر الذي حرّك فطرتها ونزوعها باتجاه امتثال حبّ المشرّع لهذه الرؤية والاندكاك في عالمه الروحي الساحر... اذ يدرك الإنسان بوجدانه أن كل أسباب الحياة وعلائق المادة هي أسباب هشّة صائرة الى الزوال. هنا يمارس الإمام (ع) دوره في كشف هذه الحقيقة قائلا:

«لقد حدّثني أبي عن آبائه أن الله عزّوجلّ أوحى لداود: يا داود، انه ما اعتصم عبد من عبادي بأحد من خلقي دوني، وعرفت ذلك منه إلا قطعت عنه أسباب السماء وأسخت الأرض من تحته»[1].

هذا ما تختلف فيه الرؤية الإسلامية عن غيرها من اتجاهات تفسير التأريخ ، حيث تؤمن الرؤية الإسلامية بوجود قوّة غيبية قاهرة توجّه السنن وتتدخل لمنع إرادة الإنسان فيما لو اقتضت المصلحة ذلك، وان كان التأريخ يجري من بين يدي الإنسان، فهو فاعله القريب المباشر الحرّ المريد، ولكن الله سبحانه محيط بكل شيء في الوجود بما في ذلك فعل الإنسان. فالإرادة الإلهية فوق الإرادة الإنسانية وفوق كل فعل للطبيعة. وهذا التصرّف في الإرادة الإنسانية هو آية من آيات

---

(١) حياة الإمام موسى بن جعفر للقرشي: ج٢/٤٩٩ .

الله في افق النفس الإنسانية، فاذا امتنع التنفيذ على الإنسان وهو في مرحلته الأخيرة بصورة غيبية غامضة فهذا دليل على تدخل عنصر جديد في هذا القرار ليمنعه من التنفيذ لمصلحة ما، يعلمها الله سبحانه ، وهذا هو التدبير[1] .

وهذا هو سرّ التوكل الذي يدعو الإنسان الى الاتصال بعالم القدرة والتصرف في الفعل، في كل فعل وسلوك وقول يمارسه في حياته الإجتماعية، لينال بذلك مباركة ذلك العالم ويستمدّ منه العون على انجاز الفعل بكماله المطلوب كما يستمد منه التدخل لمنع قدرة الظالمين عليه. دون أن يمسّ ذلك بالمساحة المتروكة للإنسان ليمارس تخطيطه ويكون مسؤولا عن فعله المباشر، بل فعل الإنسان هو المحرّك الذي يستدرّ عطف العالم الغيبي، ويستمدّ عونه: **﴿انّ الله لا يغيّر ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم﴾**[2] .

ولهذه الفلسفة تجد ثمار حركة الإمام الكاظم (ع) الى الآن يانعة في حياتنا الإسلامية، إذ استطاع بفعل أفكار وسلوكيات معينة أن يخلد رؤيته التطبيقية للدين الإسلامي ويطلقها خطة إصلاحية عبر الزمان والمكان... إذْ مهما تعقدت أشكال الحياة وتراكمت مستجداتها واختلفت منتجاتها وبرزت الظواهر العلمية والثقافية والاجتماعية على

---

(١) د. مسلم الجابري: الإرادة والفعل، ص ٢٠٨.

(٢) الرعد / ١١ .

سطحها يبقى عالم الغيب و ما وراء الطبيعة عالما روحيا آخر يأوي الإنسان من عالم المادة والمختبر والسوق والصراع، يستمدّ منه الإنسان المعاصر ما يشدّ عزيمته ويرفع معنويته ليواجه يوما محموما جديدا...

الموقف الرابع: فصل القواعد الشعبية عن السلطان

عاتب الإمام (ع) صفوان الجمّال على تعامله مع السلطة العباسية، حيث كان صفوان يؤجّر لهم جماله ليحجّوا عليها، وحينما اعتذر صفوان بأنه أكراها ليحجّوا عليها لا لشيء محرّم قال له الإمام (ع):

((أتحبّ بقاءهم حتى يخرج كِراك؟))

قال: نعم، قال (ع):

((من أحبّ بقاءهم فهو منهم، ومن كان منهم كان وارداً للنار))[1].

يريد ـ هنا ـ أن يُعلمنا الإمام أن الإنسان ليس ريشة في مهبّ الرياح، بل هو مفردة حيوية في حركة التأريخ، فسنّة الظلم والتسلط والديكتاتورية ترتبط إرتباطا عضويا بحركة الإنسان، ولا تتغلب هذه المساحة التخريبية (الظلم) إلا بعد نكوص الإنسان عن اداء دوره الفاعل في رسم نظام الحكم واخفاقاته المتوالية في مسيرته، الأمر الذي يكرّس إشكالية التسلط والاستبداد في المجتمع على شكل نظام

---

(١) حياة الإمام موسى بن جعفر: ج٢/٢٢٦ .

سياسي، وهكذا يكون علاج هذه الإشكالية لا في مواجهتها والتمرّد عليها فحسب، بل بالفعل الواعي الإرادي الرافض لكل تعاون وتعامل مع هذه الأنظمة التي حذّر المبدأ القرآني من الركون اليها واعانتها: ﴿ولا تركنوا الى الذين ظلموا فتمسكم النار﴾[1]، اذ تشكل مقاطعتها وانسحاب القواعد الشعبية عنها نقطة البداية لنهايتها حسب منطق التأريخ. وهذا ما يؤكد عليه الإمام (ع) هنا.

وأوّل من مارس تزييف الوعي وتسطيحه في تأريخنا الإسلامي هو الحكم الأموي، الذي اتخذ بعض علماء السوء بطانة تزوّر الحقائق وتضلل الأمّة بأحاديث منحولة أو تأويلات للنصوص تكرّس سلطة المستبدّ، وتقمع الأمّة في دائرة ((الإرجاء))[2].

وحتى تُقاوم هذه الظاهرة وتتم الحيلولة دون تكرار انبعاثها الجديد في العصر العباسي، ولأن للقواعد الشعبية أهمية بالغة في تشكيل النظام السياسي العادل أو الاطاحة بالنظام المستبدّ، عمل الإمام (ع) طيلة مسيرته على استمالة الرأي العام بصدق القول وقويم السلوك وجاذبية الفكر والحقيقة، اذ خرّجت مدرسته لفيفا من العلماء والرواة والفقهاء على مستوىً عال من الوعي والنضج، متأهلا لقيادة الأمّة كمعادل موضوعي للتسلط السياسي العباسي.

---

(١) هود / ١١٣.

(٢) ماجد الغرباوي: إشكاليات التجديد، ص ١٤.

وتمكن الإمام (ع) من مدّ جسور الثقة والتعاون من خلال تأثيره السلوكي الصادق على القواعد الشعبية، فزادت اللحمة بينها وبين قيادتها الشرعية حتى صارت الأموال والحقوق التي تجبى له من بقاع الأرض مادة لاعانة المعوزين وكسب الأنصار ومدّ الثوار وسدّ احتياجات ذوي الفاقة من الأمّة... كما سنرى في الفصول اللاحقة.

الموقف الخامس: الثبات في المحنة السياسية

المحنة سنّة كونية أودعها الله سبحانه في هذا الكون، ليختبر بها الإنسان ويستكشف من خلالها موقفه من الصراع الأزلي بين الخير والشر، فهي بحاجة الى ستراتيجية للمواجهة تختلف من حيث العمق والبُعد وفقا لوعي الإنسان وعمق فكره. فهي ـ سنّة الاختبار ـ وإن كانت سنننا قاهرة وصارمة، لكن الإنسان مزود بعقلية تحليلية قادرة على كشفها وتوظيفها والتعامل البنّاء معها.

ما هو موقف الإمام الكاظم (ع) منها؟

هذا ما يجيبنا عليه نظرة مجملة الى الشريط الزمني الذي احتضن معاناة الإمام (ع) بكل مراحلها ومآسيها، والكيفية المثلى التي تعامل بها الإمام (ع) في توظيف مفردة السنّة الاختبارية باتجاه الصالح العام وإرائة الصورة النموذجية للثبات فيها، وهو خطاب

موجّه لا لأهل عصره فحسب بل للأجيال، يكشف لها زيف القوى السياسية واسطورية أجهزتها الإرهابية، ويعزز لديها قناعاتها في التحرّك لإجهاض تلك القوى.

روي أن الفضل بن يحيى قال له : استعد للعقوبة يا ابا إبراهيم!

فأجابه الإمام (ع):

((أليس معي من يملك الدنيا والآخرة...))[1].

الصمود الروحي إزاء التهديدات السياسية هو المحرّك للإمام (ع) والكامن وراء اتخاذ الموقف الجادّ، وهذا هو الذي لا يعبأ بالإرهاب والتخويف. والصمود الروحي لا يستمدّ إلا بعلاقة جدلية منتجة بين النفس والقوّة الإلهية التي ينتهي اليها كل ما في الوجود. فتكون الحركة والموقف الموصول معها حركة في المطلق عن كل شيء وموقفا قادرا على الاصطدام بكل شيء.

يروى أيضا أنه حينما زاد خوف أصحابه عليه، واقترحوا عليه أن يتوارى عن وجه الطاغية العباسي، تبسّم (ع) وتمثّل بقول كعب بن مالك:

زعمت سخينة أن ستغلب ربّها ولـيـغـلبنّ مـغـالـبَ الـغـلاّبُ

---

(١) الثائر والسجن / ٦٣ .

واتجه الإمام (ع) ليحاور تلك القوّة الإلهية القاهرة، وأخذ يتضرّع إلها ويتوسّل ويطلب منها النجاة، حتى مات الخليفة العبّاسي[1].

وفي موقف آخر يعبّر الإمام (ع) عن سُنّتين متقابلتين ورمزين متصارعين منذ الأزل، سُنّة الظلم ورمز الشرّ، وسنّة العدل ورمز الخير. وبقدر ما تنقضي من أنفاس البلاء والشدة والمأساوية التي يعانيها العدل والخير، تنقضي أنفاس الظلم والشرّ، حتى يمحّي الجميع، وتترشح القيم والنتائج عن الصراع «وحينئذٍ يخسر المبطلون» كما يقول الإمام (ع) حينما كتب الى هارون الرشيد:

«انّه لن ينقضي عني يوم من البلاء حتى ينقضي عنك يوم من الرجاء. حتى نفنى جميعاً الى يوم ليس له انقضاء، وهناك يخسر المبطلون»[2].

فما يجب التنبيه عليه هو طول المدّة في المحنة السياسية وهي نفسها (طول المدة التي يستغرقها الاختبار الإلهي، فإنّ الأقدار الطويلة الأنفاس، والصراع بين الحق والباطل لا تتكشف عقباه في سنة أو سنتين، ولا في جولة أو جولتين)[3].

---

(١) حياة الإمام موسى بن جعفر للقرشي: ج١/٤٨٢ .

(٢) المصدر السابق: ج٢/٥٠٠ .

(٣) محمد الغزالي، علل وأدوية، ص ٤٣.

وهـذا مـا لا تؤمن بـه المادية التأريخـية التي تفسّر التأريخ على أنه مجموعة من التطورات والمتواليات التغييرية في الفكر والمجتمع دون أن تنتهـي الى سبب غيبي، بينما يدلل الإمـام (ع) علـى أن هـذه السـنن التأريخـية تسير عبر نشاطات وفعاليات الإنسـان باتجاه يـوم القـرار والجـزاء. وفي ذلك العالم ستتكشف حقائق الأعمال ونتائج السعي. وما هـذه التطورات المادية التي تتحدث عنها المادية التأريخية إلا مرحلة مـن المـراحل الـتي تمـرّ بهـا الإنسـانية الى تكاملـها ونضـجها وعالمهـا الأخيـر.... وكأنه يُترجم قوله تعالـى: ﴿يا أيّها الإنسان انّك كادح الى ربّك كدحاً فملاقيه﴾.

هـذا نـزر يسير من المواقف ذات الدلالات الكبيرة، أتينا بنماذجها ليتمثّـل الإنسان المعاصـر روحهـا وينسـج علـى منوالها ما إستطاع الى ذلـك سبيلا لـئلا يحيد عـن الـنهج الحق في المـواجهة ولا يـتخلف عـن البرنامج القويم في الإصلاح...

أمّـا نحـن اليوم فمن دون تغيير سلوكنا ومواقفنا واتخاذ مبادرات قـوية وحـيوية لإحـداث إصـلاحات عمـيقة في نظمـنا السياسـية والاجتماعـية والثقافـية وفي أسـاليب عملـنا واسـتراتيجياتنا ... سـوف

نستمرّ على الطريق ذاتها التي نعرفها، طريق تفاقم الأزمة الداخلية، ومن ورائها التراجع والتقهقر والهامشية التاريخية[1] ...

(١) راجع برهان غليون: العرب ومعركة الإسلام، ص ١٢، سلسلة نقد السياسةالعملية (١).

الفصل الثالث

المشاريع الإجتماعية

لمحة عن مجتمع عصر الإمام (ع)

كما انّ للإنسان شعورا بذاته وشخصيته ومنافعه له إحساس آخر بمجتمعه الإسلامي، وجاء الإسلام ليحوّل انتماءه الغريزي - في عملية تغيير جذري - من روابط متعددة الى رابطة واحدة بمحور الإنتماء الإسلامي والمجتمع، ورسم له الآلية التغييرية التي يمارس من خلالها ما يقوّي هذا الكيان ويصونه من الاعتداءات الداخلية والخارجية، ويتحرّى من خلالها سبل إنهاضه وتسييره وفق مقاصد الشريعة الإسلامية.

وبعد النبي الأعظم (ص) وانجازاته في هذا الاتجاه ونجاحاته في بناء مجتمع متماسك مدّ جناح ملكه على العالم، تعرضت البنية الإجتماعية الى ألوان من الاضطهاد والتحريف الرؤيوي والسلوكي لاغراض وسياسات ومصالح فئوية في ظل أنظمة وصلت الى ذروة التخريب بعد مبدأ الخلافة، حيث تحوّل نظام الحكم الى وجهة وراثية أدّت الى تسلط حكام بني اميّة وبني العباس على رقاب الأمّة الإسلامية ومقدراتها، مما أدّى الى بروز ملامح إجتماعية غير سليمة

من حيث تطابقها مع الرؤية الإسلامية للإنسان والمجتمع، فجاء دور أئمة أهل البيت (عليهم السلام) ليعيدوا الرؤية الإجتماعية الى نصابها الواقعي عبر مجموعة من الفعاليات المختلفة كالثورة والتأصيل الفكري والعلمي والسلوك الأخلاقي الذي لا مثيل له...

وفي عصره يطلّ الإمام (ع) بموجّهاته الكفوءة ومشاريعه التوعوية وسلوكياته الأخلاقية الفذّة التي حفرت في ذاكرة الإنسان والجماعة الى عصرنا الحاضر، وأطلق خطاباته الكثيرة والكبيرة في ركام من الانحرافات الإجتماعية الخطيرة التي أحاطت بإنسان عصره.

ورغم صعوبة التحرّك وإحكام المراقبة عليه من قبل حكام عصره، أتمّ الإمام (ع) دوره، ومارسه بشكل مؤثر في البنية الإجتماعية حتى ختمه باستشهاده الذي هزّ كيان المجتمع الإسلامي وتحوّل الى رمز إصلاحي قابل للتوهّج والإضاءة في أفق النفس البشرية لتدفع صاحبها الى الإبداع لمجتمعه والمشاركة في بنائه ورقيّه وحمايته...

وفي الفصل الأول قدّمنا صورة عن الإرهاب السياسي في ظل السلطات العباسية، ونريد أن نقول هنا انّ الإرهاب السياسي قد ترك بصماته جلية واضحة على الوضع الاجتماعي والوضع النفسي للفرد حتى بات القلق والارتباك والتردد في اتخاذ أيّ موقف هي سمات ذلك المجتمع وعنوان شخصيته، حتى أولئك المقرّبين من السلطة لم تسلم شخصياتهم من هذه الآفة.

حدّث الفضل بن الربيع أنه كان في فراشه ذات ليلة فجاءه مسرور الخادم وطلب منه أن يكلم الرشيد. قال الفضل: فيأست من نفسي. فنهض ولبس ثيابه وأتيا الرشيد فسلم الفضل عليه وسقط من الخوف.

فقال الرشيد: تداخلك رعب؟

قال الفضل: نعم يا أمير المؤمنين.

قال: فتركني ساعة حتى سكنت![1]

فاذا كان المقرّب من السلطة ذات شخصية مرتبكة وقلقة بهذا النوع، فما عسى أن تكون عليه شخصية إنسان ذلك العصر؟ وكيف يتسنى له أن يبدع ويبني ويثير ويكتشف ويقوّم البناءات الإجتماعية؟ فإنّ الفرد هو روح المجتمع ونواة بنائه الحضاري.

كلّ فرد في المجتمع ـ ماعدا القوى الثورية آنذاك ـ كان مسلوب الإرادة، مرتبك الشخصية، مغلول اليد واللسان.

كما انّ السلطة العباسية انصرفت الى حفلاتها ولياليها، حيث كانت ترصد لها المبالغ الطائلة المستمدة من حقوق الناس وجهود المجتمع. من هنا كان يتزلف إليها كثير من الشعراء ووعاظ السلاطين وكثير منهم كان يبيع ضميره للسلطة مقابل منفعة مادية محدودة.

---

(١) عيون أخبار الرضا(ع) للصدوق: ج١/ ٧٤ جمل من أخبار موسى بن جعفر(ع).

روي أن بشّار بن برد أنشد المهدي العبّاسي:

يا ابن الذي ورث النبي محمداً دون الأقارب من ذوي الأرحام
الوحي بين بني البنات،وبينكم قطع الخصام ولات حين خصامِ
ماللنســاء مع الرجال فريضة نــزلت بــذلك سورة الأنعام
أنّــى يكون وليس ذاك بكائنٍ لــبني البــنات وراثة الأعمام

فأجازه المهدي على ذلك بسبعين الف درهم.

وأنشده مروان بن أبي حفص على هذا المنوال مائة بيت، فأعطاه بكل بيت الف درهم[1].

هذا فيما تئنّ غالبية المجتمع تحت طائلة العوز والفقر والحاجة. والخلاصة أن سياسة العباسيين آنذاك كانت تنتهج الإخضاع والإذلال والتجويع وتحريف الحقائق وبالتالي بناء مجتمع وفق تصور اجتماعي بشري محدود قاصر عن إدراك المقاصد الواقعية للتشريع ومخالف لروح الشريعة.

هذا ما دعا الإمام (ع) الى انتهاج سياسة اجتماعية أخرى تتماهى مع روح التشريع ومقاصده، وتتطابق مع ثوابت الرسالة الإسلامية، كمعادل موضوعي لتلك المنهجية الإجتماعية الخرقاء، تبني الفرد

---

(١) حياة الإمام موسى بن جعفر للقرشي: ج١/٤٤٤ .

ليبني المجتمع، ويوضّح الرؤية لتؤسس سلوكا إجتماعيا متحضرا، وتعين المحتاج ليتمكن من إسناد الكيان الإجتماعي والدفاع عنه، وتقوّم الإنسان لينهض حرّا مسؤولا عن حركة المجتمع...

ويمكن تلخيص المشاريع الإجتماعية للإمام (ع)، والتي شكلت ستراتيجيته لموازنة الصراع ومواجهة الأزمة... بما يلي:

أولاً : الإعداد الأخلاقي للفرد

بدأ الإمام (ع) بالجانب الأخلاقي وضبط سلوك الفرد ليعدّه في مرحلة لاحقة للبناء الإجتماعي حيث كانت آدابه وسلوكياته وتوجيهاته ومواقفه ومعاناته كلها منابع ثرّة للرؤية في هذا الاتجاه ومناهج للتربية...

قال المفيد في الارشاد: كان موسى بن جعفر (ع) أجلّ ولد أبي عبدالله (ع) قدرا وأعظمهم محلا وأبعدهم في الناس صيتا. ولم يُرَ في زمانه أسخى منه ولا أكرم نفسا وعشرة. وكان أعبد أهل زمانه وأورعهم وأجلهم وأفقههم، واجتمع جمهور شيعة أبيه على القول بإمامته والتعظيم لحقه والتسليم لأمره[1] .

والإنجاز العظيم يكمن في جمعه بين العزلة والخلوة وما اشتهر من عبادته، وبين ذيوع الصيت وحسن العشرة وإجتماع الجمهور حوله.

---

(١) الإرشاد: ٢٨٧ في النصّ على امامته(ع).

وهذا ما يلقي الضوء على البُعد الإجتماعي للعبادة في حال فهمها المعكوس من قبل المترهبين والمتصوفين ودعاة العزلة والخلوة، ويدلل على الصيغة الصحيحة للمفهوم العبادي في الرؤية الإسلامية.

من خلال العبادة ينطلق الإمام (ع) في رسم خرائط الوعي الإجتماعي المؤثّر، انه إبراز للنموذج الأخلاقي الأقرب الى التأثير من المفهوم والتنظير...

أكد الإمام (ع) على ضرورة اجتناب كل ما يسيء الى الشخصية الإسلامية المتزنة ، والإزدياد من أداء المعروف وحسن الخلق، وعدم تسفيه الذات بالردّ على كيد العدو ومجابهة الجهلاء بمثل أساليبهم... واجه أعداءه بالإحسان وشانيئه بالكرم والإساءة بالتجاوز والعفو، وتمكن في غير موضع أن يحوّلهم الى أصدقاء ومحبّين.

روي أن رجلا كان يؤذيه ويشتم علي بن أبي طالب (ع)، فأراد أصحاب الإمام (ع) قتله فنهاهم عن ذلك بشدّة، حتى اذا كان الرجل ذات يوم في زرع له بنواحي المدينة، دخل إليه الإمام (ع) في مزرعته، فصاح الرجل: لا تطأ زرعنا! فاستمر الإمام (ع) في طريقه إليه حتى وصل إليه وجلس عنده وجعل يلاطفه، ثم أعطاه الإمام (ع) ثلاثمائة دينار والزرع على حاله. فقام الرجل وقبّل رأس الإمام (ع). وحينما ورد الى المسجد وجد نفس الرجل جالسا، فلمّا نظر الى الإمام (ع) قال: الله أعلم حيث يجعل رسالته. فتعجب أصحاب الإمام فقال لهم:

((أيّما كان خيراً ما أردتم أو ما أردت أن أصلح أمره بهذا المقدار))[1].

وكان اذا بلغه عن الرجل ما يكره بعث إليه بصرّة دنانير، وكانت صراره ما بين المائتين الى الثلاثمائة دينار.

كما روي أن السرّ في تلقيبه بالكاظم هو ما كان يكظمه من الغيض وتناسيه لإساءات الآخرين[2].

في هذا السمو الأخلاقي تكمن فلسفة إجتماعية مؤثرة يراد لها أن تتحرك لتصفية الصراع الداخلي والجدل الإنساني الموجود أساسا في النفس البشرية، والذي يعيق علاقة الإنسان بأخيه الإنسان، ومتى ما تعرقل سير هذه العلاقة كفت وتوقفت عن انتاج المجتمع الفاضل المنشود، والاسلام (هو تلك الرسالة التي تعمل على مستويين في وقت واحد، تعمل من أجل تصفية التناقضات الإجتماعية على الساحة لكن في نفس الوقت وقبل ذلك وبعده تعمل من أجل تصفية ذلك الجدل في المحتوى الداخلي للإنسان من أجل تجفيف منبع تلك التناقضات الإجتماعية)[3].

فالعمل على تحريك مقاصد الشريعة في الواقع والدفاع عنها

---

(١) الارشاد للمفيد: ٢٩٧/باب في فضائله ومناقبه(ع).

(٢) نفس المصدر: ٢٩٨ .

(٣) محمد باقر الصدر: المدرسة القرآنية، ص ٢٠٧ .

وخوض الصراع والمواجهة مع التناقضات الاجتماعية (كالسلطات ووعاظ السلاطين والمخرّبين والمحتلين) يجب أن ترافقه عملية تربوية اخرى تنطلق من النفس بعد تصفية تناقضاتها وابراز نموذجها المشرق، باعتبار أن النفس هي مصدر الإنبعاثات المختلفة، وهي تتحرك بشكل مثمر كلما كانت صافية من الجدل في محتواها الداخلي، وتتناسب درجة إخصاب إبداعها بشكل طردي مع قوّة ودرجة التصفية الداخلية.

من هنا كان الإمام الكاظم (ع) يمارس هذا اللون من التربية المؤسسة على فلسفة التصفية الداخلية والعفو والتسامح وطيب النفس والسخاء والبذل، ليمكن الإنسان ـ عبر نموذجه هو (ع) ـ من تصفية صراعه الداخلي والاقتداء بالنموذج، ليتشيّد من أفراد بهذه النوعية أركان مجتمع قادر على تصفية التناقضات الاجتماعية الاخرى في الساحة، وهو ما تعبّر عنه النصوص بالجهاد الأصغر والأكبر.

وكعودة الى ستراتيجية الإمام التي انتهجها مع المجتمع، لنقرأ:

ـ رُوي أنه (ع) أولم على بعض ولده ـ أي حينما رزق ولدا ـ فأطعم أهل المدينة الفالوذجات في الجفان في المساجد والأزقة حتى عابه بعض أهل المدينة، فبلغه ذلك، وردّ الردّ القرآني المناسب والمفحم[1].

(١) الكافي: ج٦/٢٨١/كتاب الأطعمة /باب الولائم/حديث١. والفالوذج كلمة فارسية معرّبة معناها الحلواء تعمل من الدقيق والماء والعسل، يطمع بأكلها الفقراء.

ـ أولم لبعض أصحابه وأكرمهم بأنواع الطعام ثم سأل أحدهم:

((يا عاصم كيف أنتم في التواصل والتبارّ))؟

قال: على أفضل ما كان عليه أحد. قال (ع):

((أياتي أحدكم عند الضيقة منزل أخيه فلا يجده، فيأمر بإخراج كيسه، فيخرج فيفضّ ختمه، فيأخذ من ذلك حاجته فلا ينكر عليه؟)).

قال: لا. قال (ع):

((لستم على ما أحبّ من التواصل))[1].

ومن هذين الموقفين ندرك بأن ستراتيجية الإمام (ع) الأخلاقية ، لم تدُرْ في إطار التنظيرات أو تكتفِ برفع الشعارات واطلاق الخطابات كما هو شأن كثير من العاملين في الوسط السياسي والإجتماعي اليوم، بل ترتكز في صيغتها الأساس على البذل والعطاء والنزول الى واقع المجتمع، تستخبر وتحاور وتحرّك وتؤثّر وتبذل، لتكشف بذلك مدياتٍ وآفاقا إجتماعية كبيرة تحتضن موسى بن جعفر (ع) رمزا لفلسفة الإسلام وقيمه الإجتماعية.

ثانياً: إعانة الطبقة الفقيرة

لقد أفرز المجتمع الذي صاغته السياسات العباسية طبقة فقيرة

---

(١) البحار: ج٤٨/١١٨/باب عبادته، الحديث ٣٥ نقلا عن ((مكارم الأخلاق)).

معدمة تعاني من شظف العيش وصعوبة الحياة، سعى الإمام (ع) الى محوها ورفع مستواها المعيشي بخصوصية اقتصادية يتوفر عليها الفكر الاسلامي وهي خصوصية البذل والتكافل والتعاون. فتحرّك الإمام (ع) في هذا المجال تحركا واسعا لالغاء هذا التفاوت ورفع الحالة المعيشية لهذه الطبقة من المجتمع عبر مشاريع متعددة:

ـ روى المؤرّخون أنه (ع) كان يتفقد الفقراء ويصل أهله ورحمه ويبعث بالصرار المليئة بالدراهم والدنانير حتى ضرب المثل بصراره، فقيل: اذا جاءت الإنسان صرة موسى فقد استغنى[1].

ـ روى الشيخ المفيد أن محمد بن عبدالله البكري، قال: قدمت المدينة أطلب دينا فأعياني، فقلت: لو ذهبت الى أبي الحسن (ع) فشكوت إليه، فأتيته في ضيعته، فخرج إليّ ومعه غلام ومعه منسف فيه قديد مجزّع، ليس معه غيره، فأكل وأكلتُ معه ثم سألني عن حاجتي، فذكرت له قصّتي، فدخل ولم يُقم إلا يسيرا حتى خرج إليّ، فقال لغلامه ثم مدّ يده إليّ فناولني صرّة فيها ثلاثمائة دينار[2].

ـ قال ابن شهرآشوب: وكان (ع) يتفقد فقراء أهل المدينة، فيحمل

---

(١) تاريخ بغداد للخطيب البغدادي: ١٣/٢٧، والمناقب لابن شهرآشوب: ج٤/٣١٨/فصل في معالي أموره.

(٢) الارشاد: ٢٩٦/باب في فضائله(ع).

إليهم في الليل العين والورق وغير ذلك، فيوصله إليهم، وهم لا يعلمون من أيّ جهة هو[1].

- كان يعين المعوزين ويقضي حوائجهم حتى في البلاد البعيدة من خلال وكلائه المبثوثين في تلك البلاد واتباعه هناك.

- روي انّ رجلا كان عليه أموال لحكومة الريّ، فلم يتمكن من أدائها، فعلم أن الوالي عليها من أتباع الإمام (ع)، فسعى الرجل لملاقاة الإمام (ع) في الحجّ، ولقيه وطلب منه التوسّط له لإلغاء ما عليه من الديون. فكتب الإمام (ع) رسالة الى والي الريّ يأمره بقضاء حاجة الرجل، فلمّا تسلم الوالي الرسالة قبّلها وقام تكريما لها، واستجاب لما فيها وأعفى الرجل من الديون، بل أعطاه من ماله الشيء الكثير[2].

- كان يعطف على غلمانه ونسائه وعبيده وامائه ويكرمهم باعتبارهم وجودات ضعيفة ومستضعفة من قبل المجتمع.

- روي أن جواريه كانت عليها الوشي (الثياب الملوّنة)، وكانت نساؤه اذا تبخّرن فباطيب البخور[3].

---

(١) المناقب: ج٤/٣١٨/في معالي أموره.

(٢) حياة الإمام موسى بن جعفر(ع): ج١/١٦١ .

(٣) الكافي: ج٦/٤٥٣، ٥١٨/باب لبس الوشي وباب البخور.

ـ كما روي أنه اشتري له ثلاثون مملوكا، فكلم غلاما منهم، وأمره أن يستوصي بأصحابه خيرا ويعطيهم في كلّ هلال (شهر) ثلاثين درهما[١].

ـ واشترى أحمد بن أبي خلف وأمّه وأباه وأخاه فأعتقهم جميعا[٢].

ـ كان يتحرّى أسباب الإنحراف الإجتماعي، ويتحسس الدوافع الإنسانية للجريمة فيرفعها ويعالجها بطريقة أكثر لطفا ورحمة من أحدث الأساليب في إصلاح المجرمين[٣].

روي أنّه جيء له بغلام أخذ كارة من التمر، فسأله الإمام (ع):

ـ يا فلان أتجوع؟

ـ لا يا سيدي.

---

(١) البحار: ج٤٨/١٠١/باب عبادته وسيرته.

(٢) الكافي، المصدر السابق.

(٣) كتب علماء النفس المتخصّصون في علاج الجريمة مجموعة من الأساليب العملية لمنع وقوع الجريمة وعلاجها، كان خامسها هو ((إصلاح النظام الاجتماعي)) والذي يتركز رفع الأسبالب النفسية والاقتصادية للجريمة ووضع نظام سلوكي وخلقي لدرء أكبر مساحة ممكنة من الجريمة، ومن أقطاب هؤلاء العلماء الداعين لهكذا نوعية من العلاج: بنتام وانريكو فيري ودونالت تافت وسول آلنسكي. والأخير لم يوجّه برنامجه نحو ضبط الجريمة والإنحراف، بل حاول إجراء تغييرات جذرية في المجتمع تتعلق باستئصال البطالة وسوء التغذية والأمراض والفساد والانهيار الخلقي وجميع أوجه الخلل في النظام الاجتماعي. وقارن ذلك بمشاريع الإمام (ع)...

راجع: علم الإجرام وعلم العقاب للدكتور عبوّد السراج، ص ٤٥٢ فما بعدها.

- فتعرى؟

- لا يا سيدي.

- فلأي شيء أخذت هذه؟

- اشتهيتُ ذلك!

- إذهب فهي لك، خلو عنه[1].

الى غير ذلك من المواقف الكثيرة التي لا يحيط بها كتاب، توحي لك بمدى إيلاء الإمام (ع) لهذا الجانب المهم من المجتمع، عنايته وتخطيطه وبذله وتركيزه في ذهنية الأمّة، لما للجانب الاقتصادي أهمية في إصلاح الفرد والمجتمع.

فرفع مستوى الطبقة الفقيرة من خلال تفعيل ما رغبت به الشريعة من البذل والتكافل يشكل تفويتا للفرصة على السلطات التي تتعمد سياسة التجويع ليبقى الإنسان محتاجا لها ومرتبطا بها على الدوام، كما يشكل نافذة إصلاحية للفرد حتى يتجاوز غرائزه ويكبح جماح نفسه عن طريق توفير الحدّ الأدنى من المعيشة حيث سيكون انحرافه فيما بعد بلا مبرر. وحينما نكصت السلطة العباسية عن أداء هذا الدور، قام به الإمام (ع) على أكمل وجه، حيث جلبت له الأموال بفعل شعبيته الواسعة وتأثيره الفكري والأخلاقي على الأمّة، فراح

---

(١) الكافي: ج٢/١٠٨/باب العفو/حديث٧.

يصرفها في هذا الاتجاه الحضاري، ويتمثل التكافل الإجتماعي الذي ندب إليه الإسلام كقيمة حيّة ذات تأثير اصلاحي كبير على الفرد والمجتمع...

وحيث يقع الفرد في مصيدة شبكة معقدة من عوامل حيوية واجتماعية ونفسية. ولن يدهشنا أن تضيق الشبكة حينما ينزل المرء السلم الاجتماعي، يكون العلاج أوّل خطوط مقاربة المشكلات المختلفة لطبقة الفقراء، إذْ (إنّ ما يحتاجه هؤلاء هو دعم مادي مباشر وتدخل عملي يمكنهم من متابعة الحياة)[1] و هو ما يسمّيه علماء النفس بطريقة «العلاج الأسري» حيث ينظرون إلى المجتمع كأسرة واحدة فيها مرضى وفيها مصلحون، في مقابل طرائق العلاج النفسي الفردي[2].

ثالثاً : تسليح المجتمع عبادياً

أطلقوا على الإمام موسى بن جعفر (ع) لقب (راهب بني هاشم) و(العبد الصالح) لكثرة عبادته وشدّة تعلقه بالله سبحانه وتعالى. وقد اعترف بهذا البُعد حتى مؤرّخوا أهل السنّة حيث روى الخطيب البغدادي أنه (ع) دخل مسجد رسول الله (ص) فسجد سجدة في أول

---

(١) د. ميخائيل إبراهيم أسعد: المرشد في العلاج النفسي، ص ٢٣٥.

(٢) راجع المصدر السابق.

الليل، وسمع يقول: عظم الذنب عندي فليحسن العفو عندك يا أهل التقوى وأهل المغفرة. فجعل يرددها حتى أصبح[1] .

ونقل الذهبي عن أبي حاتم قوله: وكان صالحا، عالما، عابدا، متألها[2] .

أمّا كتب الخاصّة فقد حفلت بتصوير هذا البُعد الروحي والعبادي من شخصية الإمام (ع)، فقد مرّ علينا كيف أنه كان يشكر الله سبحانه في السجن لأنه فرّغه للعبادة وكان ذلك حُلمه وكيف أنه حول تلك الطوامير الى مساجد مشعّة بالذكر والأنوار الإلهية والخشوع للواحد القهّار.

ذكر الطبرسي: أنه (ع) كان أعبد أهل زمانه وأنه كان اذا قرأ القرآن يحزن ويبكي السامعون لتلاوته، وكان الناس بالمدينة يسمّونه (زين المتهجدين)[3] .

كما روى ابن شهرآشوب: أنه (ع) كان يبكي من خشية الله حتى تخضلّ لحيته بالدموع، وكان يقول في سجوده:

«قبح الذنب من عبدك فليحسن العفو والتجاوز من عندك»[4] .

---

(١) تاريخ بغداد: ج٣/٢٧ .

(٢) تاريخ الإسلام: (١٨١ ـ ١٩٠هـ) ص٤١٧، برقم ٣٧٢.

(٣) أعلام الورى ٣٠٦، ٣٠٩. والارشاد للمفيد ٢٩٨.

(٤) المناقب: ج٤/٣١٨ .

وهذا البُعد من حياة وشخصية الإمام (ع) لم يكن فعالية شخصية لتربية نفسه أو نزع غرائزها بقدر ما كان يقصد به تركيز المعنى في ذهنية الأمّة وتحريكه في المجتمع، من خلال ترغيب الفرد في الالتحام بهذا الجانب الروحي العظيم والاتصال الدائم بعالم الغيب، ولهذا أبعاد وانعكاسات ودلالات ومعان تصبّ في الصميم من حركة الفرد في المجتمع. انّ العبادة في المنظور الإسلامي ليس طقوسا واداءات معينة، بل هي قيم إجتماعية تتغلغل في عمق تركيبة الإنسان وتبعثه على التحرّك الحضاري إزاء علاقاته الإجتماعية بأبناء جنسه وعقيدته، بأخلاقية يستقيها من أخلاقية ذلك العالم الذي يندك في عبادته روحا وجسدا وضميرا، فلا يترشح من سلوكه في المجتمع عند حركته في الواقع إلا القول الجميل والفعل البناء والخلق القويم والوعي الكبير.

وطبيعي أيضا أن الإنسان المتعبّد والمراعي لعالم الغيب في سلوكه وحركته ووعيه، سوف يكون له سلوك اجتماعي متمرد على كل ما هو منحرف وفاسد، فيلتقي البُعدان الإجتماعي والسياسي في رفض الاستبداد السياسي والإنحراف الخلقي من أيّ مصدر كان.

من هنا تحارب السلطات الاستبدادية هذا البعد العبادي وتحاول اعاقة سيرورته بكافة الأساليب، فيأتي دور إمامنا الكاظم (ع) ليربّي الأمّة عليه، ويركز معناه في نفوس أبناء المجتمع... بل ويشخص لافتة

ينبغي على المصلحين والعاملين أن يتمثلوها حركة ووعيا بهذا الاتجاه الروحي الفاعل والبنّاء.

إن العالم الروحي العظيم الذي يلجأ إليه الإنسان المؤمن في عبادته ليس هروبا ميتافيزيقيا أو إمساكا بلحظات نفسية هاربة ـ كما يحلو الوصف لأولئك الذين لم يعوا المفهوم العبادي في الإسلام على حقيقته ـ بل هو موقف يتخذه العابد من صراع عنيف لعلائق وصلات مادية تتجاذب الإنسان من كل جانب، وهذا الموقف يتمثّل وعي العابد بالصراع واتخاذه خطوة الانحياز الى طرف الخير المطلق العالم بكل شيء والقادر على كل شيء، فهو إعلان للانتماء الى الحقيقة المطلقة لتشحذ هذه الحقيقة همّة العابد وتعيد ترتيب وعيه للتعامل الصحيح والمثمر مع مفردات الحياة وعلاقاتها.

إنّ الذي يتغيّر هو أشكال الحياة أو ما يسمّيه الشهيد الصدر بـ(علاقة الإنسان بالطبيعة) أمّا الجانب العبادي فهو يُعالج ـ وفق الرؤية الإسلامية ـ حاجة ثابتة في أعماق الإنسان تنظم علاقاته بغيره. يقول الصدر:

> ((وأمّا العبادات فهي ليست علاقة بين الإنسان والطبيعة لتتأثر بعوامل هذا التطوّر، وإنما هي علاقة بين الإنسان وربّه. ولهذه العلاقة دور روحي في توجيه علاقة الإنسان بأخيه الإنسان، وفي كلا هذين الجانبين نجد أنّ الإنسانية على مسار التأريخ تعيش عدداً

من الحاجات الثابتة ... ولا زال هذا العلاج الذي تعبر عنه العبادات حيّاً في أهدافه حتى اليوم، وشرطاً أساسياً في تغلّب الإنسان على مشاكله، ونجاحه في ممارساته الحضارية)) [1].

أما أولئك الفارقون في علائق الحياة المادية فأولئك منهزمون عاجزون عن اتخاذ هذا الموقف. من هنا يحثّ الإمام (ع)على العبادة والذكر والمناجاة ويشير الى فلسفة الموقف من الصراع، في وصيته لهشام بن الحكم:

((يا هشام: أوحى الله تعالى الى داود (ع) قل لعبادي: لا يجعلوا بيني وبينهم عالماً مفتوناً بالدنيا، فيصدهم عن ذكري وعن طريق محبتي ومناجاتي، أولئك قُطّاع الطريق من عبادي، انّ أدنى ما أنا صانع بهم أن أنزع حلاوة محبّتي ومناجاتي من قلوبهم)) [2].

رابعاً: تشخيص المنهج والفكر

يرتبط الفكر بحياة المجتمعات ارتباطا وثيقا، باعتبار أن الثقافة هي مجموعة القيم والأفكار والمعتقدات التي تشكل التحيزات الثقافية لأيّ مجتمع، ومن التحيزات الثقافية والعلاقات الإجتماعية يتكون

---

(١) موجز في أصول الدين (المرسل الرسول الرسالة)، ص ٢٥١، بتحقيق عبد الجبار الرفاعي.

(٢) تحف العقول للحرّاني: ص٢٨٣ .

لأيّ مجتمع، ومن التحيزات الثقافية والعلاقات الإجتماعية يتكون نمط الحياة الإجتماعية لأي جماعة بشرية. من هنا حرص الإمام الكاظم (ع) على تشخيص الفكر السليم في خضم صراع الأفكار السياسية والفلسفية في عصره، هذا من جهة ومن جهة أخرى أطلق خطاباته التشخيصية للمنهج والفكر الصحيح بشكل يتجاوز الأطر الزمانية والمكانية، ويتفاعل في وجدان الضمير الإنساني والذهن البشري، ليدفعه نحو التماسك والحركة والبناء مهما تعقدت أشكال الحياة وامتدّ الزمن، استيحاءً لذلك المعنى من خلود فكر الشريعة الإسلامية وصلوح منهجها لكل زمان ومكان...

وبما انّ الإمامة امتداد طبيعي للنبوّة وفلسفتها في جانب الإصلاح الاجتماعي، ركز الإمام (ع) على تعريف الأمّة بمقام أهل البيت (عليهم السلام) وحكمة الإمامة وتشخيص نموذجها، ليؤدي ذلك الى التزام الفكر والمنهج الصحيح في خضمّ ذلك التقاطع الكثيف، لأن الإمام هو الرمز الذي يشير الى سلوك الجادة القويمة في متاهات الميول والاتجاهات. قال أمير المؤمنين (ع) موضحا أهمية الإمامة في الحياة الاسلامية بعد النبوّة:

«فقبضه إليه كريماً، فخلّف فيكم ما خلّفت الأنبياء في أممها، اذ لم يتركوهم هملاً بغير طريق واضح ولا علم قائم»[1]،

---

(١) نهج البلاغة: خطبة رقم ١ .

وقال أيضا:

((ولم يُخلِ الله سبحانه خلقه من نبيّ مرسل أو كتاب منزل أو حجّة لازمة أو محجّة قائمة))[1].

وهكذا راح الإمام الكاظم (ع) يقتنص الفرص للتدليل على أحقية اتباع منهج أهل البيت (عليهم السلام) باعتباره امتدادا للمنهج الفكري والاجتماعي للرسالة، والمنقذ للمجتمع من متاهات الطيش والإنحراف والتسخير، ملفتا أنظار معاصريه الى الظلّ الذي عليهم التفيّوء به لصيانة مبدئهم وضمان سعادتهم الأبدية.

فتارة ينظر لدور الإمامة في الحياة الإسلامية وسعة إحاطتها العلمية، وتارة يعرّف نفسه كرمز ممثل لها في عصره، لتتكامل جانبا النظرية والتطبيق من أجل إرساء ملامح السير الفكري الصحيح للمجتمع الإسلامي.

رُوي أنه قال لمن تعجّب من وفور علمه (ع):

((إن الإمام بمنزلة البحر الذي لا ينفد ما عنده، وعجائبه أكثر من ذلك. والطير حين أخذ من البحر قطرة لم ينقص من البحر شيئاً، كذلك العالم لا ينقص علمه شيئاً ولا تنفد عجائبه))[2].

---

(١) نفس المصدر السابق.

(٢) البحار: ج٤٨/١٠١/باب عبادته وسيرته.

كما روى ابن شهرآشوب، قال: اجتمعت عصابة الشيعة في نيسابور واختاروا محمد بن علي النيسابوري، فدفعوا إليه ثلاثين الف دينار وخمسين ألف درهم، وجزءً فيه سبعون مسألة، وقيل له: من أجابك فادفع إليه المال والا فردّ إلينا أموالنا. ودخل على عبدالله الأفطح وامتحنه وخرج عنه قائلا: ربّ اهدني الى سواء السراط، قال: فبينا أنا واقف، واذا بغلام يقول: أجب من تريد! فأتى بي الى دار موسى بن جعفر (ع) فلمّا رآني قال لي:

«لِمَ تقنط يا أبا جعفر؟ ولِمَ تفزع الى اليهود والنصارى؟ إليّ فأنا حجّة الله ووليه، ألم يعرّفك أبو حمزة على باب المسجد خبري؟ وقد أجبتك عمّا في الجزء من المسائل بجميع ما تحتاج إليه..»[1].

وفي ذيل الرواية التي تحدّثت عن قلق أبي خالد الزبالي وخوفه على الإمام (ع) حينما حُمل الى طاغية عصره، وعودة الإمام (ع) بسلام، قال له الإمام (ع):

«يا أبا خالد، من مات ولا يعرف إمامه مات ميتةً جاهلية وحوسب بما عمل في الإسلام»[2].

---

(١) المناقب: ج٤/٢٩٤/فصل في أخباره بالمغيبات.

(٢) نفس المصدر: ٢٩٥ .

إنه يركز على حتمية التفاف الجماهير حول قيادتها الشرعية الواعية، لتستمد من نسغها الفكري الخالص ما يمكنها من الصمود والمواجهة ويحصّنها من الزيغ والانحراف، وسط صخب الساسة العباسيين وضجيجهم الاعلامي الذي تبنّى مباديء الدفاع عن حريم الآل والنبوّة ثم انقلب على تلك المباديء محدثا مساحة تدميرية في البنية السياسية والاجتماعية للمجتمع الاسلامي.

يذكر الشهيد مطهّري سببين للزوم الإيمان بالإنسان الكامل الذي يمثّله الإمام أو النبي؛

الأوّل : إنّ معرفته تتكامل في ضوء معرفتنا لله سبحانه، فإنّ المعرفة الكاملة لله سبحانه لابدّ أن تشتمل على مظاهر هدايته ودلالته.

الثاني : إنّ معرفة مقام النبوّة والإمامة لازمة لأنها تستنتج الحصول على منهاج كامل وصحيح للعمل[1].

فتعريف الإمام (ع) بنفسه وتأكيده على ضرورة المنهج والفكر في المواجهة يعدّ مشروعا إجتماعيا ينقي جذور الهيئة الاجتماعية ودوافعها ويؤصّل مبادئها الدينية والفكرية فيها لتكون أكثر تماسكا وأعزّ جانبا...

---

(١) العدل الإلهي، ص ٢٥٧، ترجمة محمد عبد المنعم الخاقاني.

خامساً : التأصيل للمرحلة القادمة

وخطوة مستقبلية أخرى في هذا الاتجاه، توضّح خط السير وتشخّصه للعاملين في الوسط الاجتماعي، في حركة وعي هادفة تهدف الى التأصيل في المرحلة القادمة، فهو يعلم ويدرك جيدا أن الأمّة ستقع في نفس الإشكالية المعرفية التي وقعت فيها بعد شهادة أبيه الصادق حيث انحرفت طائفة الى عبدالله الأفطح ابن الامام الصادق (ع)، وانحرفت غيرها الى إسماعيل ابن الامام الصادق (ع)، وقد عانى الإمام الكاظم (ع) كثيرا من أجل تشخيص القيادة الشرعية الصحيحة، وتمكن بعد لأي من جذب واستقطاب الجماهير الشيعية وتعريفها بنفسه الشريفة. من هنا كرّر الإمام الكاظم (ع) النصّ على إمامة ابنه الرضا (ع) وأكد على أنه هو الشخصية القيادية من بعده، والقادرة على توجيه المجتمع نحو مقاصد الدين والشريعة لما يتميّز به من مزايا وصفات خلقية وفكرية، نصّ عليها الأئمة من قبل.

روى الصدوق بسنده الى داود بن كثير أنه سأل الإمام الصادق عن الإمام الذي يخلفه من بعده، فأشار الى ابنه موسى الكاظم (ع)، وأن داود لم يشك بعد ذلك طرفة عين، قال: ثم مكثت نحوا من ثلاثين سنة، ثم أتيت أبا الحسن موسى (ع) فقلت له: جعلت فداك، إن كان كونٌ فإلى مَنْ؟ قال:

«فإلى علي ابني ــ الرضا (ع) ــ».

قال داود: فكان ذلك الكون، فو الله ما شككتُ في علي (ع) طرفة عين قط[1].

ولو دققنا في طبيعة السؤال وجواب الإمام (ع) والنتيجة، لكان لزاما علينا أن نشير الى الأزمة والحلّ والنتائج المستقبلية، ليتضح لنا خطاب عميق نستكشف من خلاله خطابا معاصرا يمكن اعادته في حياتنا!. فالأزمة التي حدثت آنذاك نتيجة للتضليل الاعلامي السياسي أو التضليل الفكري العقائدي ـ وكلاهما ينتجان عن صراع المنافع والمصالح والأنانيات ـ لازال يخيّم على ربوع بلادنا الإسلامية والعربية مع وضوح المنهج ووفور المبدأ، لكنه يعيد نفسه بشكل آخر يتناسب مع تعقد شكل الحياة المعاصرة والاكتشافات الحديثة والتقليعات المختلفة التي تهدد كيان المجتمع وتشوّه ملامحه الأصيلة. ويتمثل هذا الشكل الجديد بتضليل الرأي العام عن المبدأ والفكر السليمين وعمّن يمثّله في الحياة الإسلامية، وهو المبدأ السليم ومن يمثّله من رموز علمية مقدسة. وأما النتائج فالمستقبل كفيل باحتضان ثمارها وتنضيج فعلها الاجتماعي...

---

(١) عيون أخبار الرضا(ع): ج١/٢٢/باب ٤ حديث٦. وقد تكرر هذا السؤال والجواب فيما رواه نصر بن قابوس عن الإمام (ع) في نفس المصدر. فهي ظاهرة تؤشّر الى ازمة فكريةآنذاك عالجها الإمام (ع) بوعي وبصيرة وأثمرت في ذلك الواقع الاجتماعي كما سترى في التحليل...

كان (ع) يبعث صوته ليهزّ أعماق المجتمع ويحرّك نواة وعيه ليتمثّل فكر أهل البيت (عليهم السلام) ومنهجهم سلوكا لا بديل عنه، محمّلا وعاة المجتمع مهمّة إبلاغ ذلك للأجيال القادمة... لم يكتف الإمام (ع) بالنصّ على إمامة الرضا (ع) بل صرّح بملاك إمامته باعتباره (خير أهل الأرض) وهذا يستبطن خطابا آخر يجمع كل صفات القيادة الشرعية والحقيقية في قبال قيادات جوفاء ذات سياسة نفعية.

روى الشيخ الطوسي بسنده الى زياد القندي وابن مسكان، قالا: كنّا عند أبي إبراهيم ـ وهو الإمام الكاظم (ع) ـ إذ قال:

((يدخل عليكم الساعة خير أهل الأرض)).

فدخل أبو الحسن الرضا (ع) وهو صبي، فقلنا: خير أهل الأرض! ثم دنا فضمّه إليه فقبّله.

قال علي بن أسباط: فحدّثت بهذا الحديث الحسن بن محبوب ، فقال، بترا الحديث (يعني القندي وابن مسكان)، لا ولكن حدّثني علي بن رئاب أن أبا ابراهيم (ع) قال:

((انّ جحدتما حقّه أو خنتماه فعليكما لعنة الله والملائكة والناس أجمعين))[1] .

فلعنة الله تترتب على مخالفة مقصوده في النصّ على الإمام

---

(١) الغيبة للشيخ الطوسي: ٦٨/حديث٧١ .

المعيّن، ولعنة الملائكة لابتعاده عن منهج التزكية للذات والسلوك، وأما لعنة الناس فلانتهاجه ما يجانب خير المجتمع ومتطلبات القيم الاجتماعية الاسلامية. هذه هي النتائج المترتبة على كل فعل يخالف المرموز الديني المنصوب لإرائة المنهج الفكري الصحيح ... وهي عواقب تكشفها حركة الواقع وتجربة الفرد في خضمّ صراعه مع الأفكار والأشياء والوقائع المتجددة...

دراسة المشاريع الاجتماعية

هذه المشاريع هي نماذج من الوعي الاجتماعي الذي سعى الإمام الكاظم (ع) الى ترويجه في المجتمع، والتي تربّي الفرد وتعدّه روحيا وأخلاقيا وثقافيا ليبني مجتمعا صالحا في مقابل المجتمعات الهشّة المسلوبة التي تبنيها السلطة وأعوانها... لتنتج في الأخير إشكالية الثقافة والسلطة !

وفي البحث والاستجلاء يمكن اكتشاف مشاريع أخرى كثيرة تصبّ ثمارها في هذا الاتجاه، وكنّا بصدد ذكر النموذج الحضاري الذي تعامل معه إمامنا (ع) في الجانب الاجتماعي، مما يعرّفنا على الجانب التخطيطي والميداني من حياة أئمتنا (عليهم السلام) ويوضّح لنا مدى العبقرية القيادية التي تختزنها شخصياتهم المقدسة، ويعزّز اعتقادنا بهم وبنهجهم (عليهم السلام)...

أمّا نظريات علم الاجتماع المعاصرة والتي قد ينبهر بها الإنسان المعاصر ويقدّمها على دراسة مشاريع اجتماعية مثل هذه التي يمارسها الإمام (ع)، فهي عبارة عن «مجموع مبادئ وتعريفات مترابطة، تفيد جوانب مختارة من العالم على نحو منسّق ومنتظم»[١] .فهي تتكون من قضايا مترابطة منطقيا وقابلة للتحقق الواقعي، وتنطوي على دعاوى وبدهيات أساسية ... لأنّ النظرية في علم الاجتماع مستمدّة أصلا من نتائج عملية أجريت فعلا في الواقع الاجتماعي، وليست مستمدّة من النظر العقلي المجرّد[٢] .

وهكذا يمكن استنتاج نظرية الإمام (ع) أو نظرية الأئمة (عليهم السلام) في الجانب الاجتماعي .. غاية ما هنالك أنّ المسألة بحاجة إلى بحث أكاديمي منهجي معاصر...

---

(١) د. محمد عاطف غيث: قاموس علم الاجتماع، ص ٤٨٦.

(٢) د. محمد عاطف غيث: الموقف النظري في علم الاجتماع، ص ٤ ـ ٥.

القسم الثاني

الحياة العلمية والثقافية

الفصل الأول

ملامح مدرسته العلمية

الامتداد العلمي والتواصل المعرفي

انبثق الإسلام ثورة عارمة ضد الجهل والظلام والجمود، والتحجّر العقلي، تلك الأشياء التي تقود الأمّة نحو الفناء والزوال الحضاري، ووضع الخطوط العامّة لتحصيل العلوم والمعارف والأخلاق، ليتحصّن المجتمع الإسلامي ضد حملات التشويه الفكري والتجويف الذهني والاستلاب الشخصي، مهما كان مصدرها ودافعها. وجاء الخطاب القرآني:

﴿هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون﴾[1].

﴿يرفع الله الذين آمنوا منكم وأُوتوا العلم درجات﴾[2].

﴿انّما يخشى الله من عباده العلماء﴾[3]...

ليؤكد على العلم كقيمة حضارية مميزة عن سائر القيم

---

(١) الزمر/٩.

(٢) المجادلة/١١.

(٣) فاطر/٢٨.

الإسلامية الأخرى، تهدف الى البناء الداخلي للإنسان وتشييد صرح الوعي في عمق شخصيته، لينطلق في التعامل مع مفردات الحياة بتلك الطاقة الإشعاعية التي تحوّل المفردات الى سلوك حيّ معطاء يصبّ في الصميم من هدف الشريعة وقصدية الخلقة. من هنا ترى السلطات غير الشرعية تكرّس إمكانياتها لشلّ هذه الدينامية في فكر الإسلام وتعيق أبناءه من تمثّلها وهضمها، لتبقي حالة الجهل والجمود والتحجّر عوائق تدميرية تحول دون انفتاح الإنسان على هذه القيمة (العلم) والاستفادة من معطياتها، لتمرّر بالتالي مشاريعها النفعية عبر الإنسان الى المجتمع...

فالمعرفة إذاً، لازمة للوجود البشري. إنّها بالنتيجة قدر الإنسان ورهانه في رحلة التحدّي والعمران، وأيضا في مرقى النضوج والكمال .. فتأريخ البشر هو تأريخ تخزين دائم ومتواصل للعلم والمعرفة[1].

انّ حضارة أيّة أمّة انّما تقاس بمدى توفرها على لفيف من العلماء والمفكرين الذين يعون الواقع ويدركون كيفية تحريك قيم الإنسان على الأرض لتثمر الخير والسعادة والرقي والإبداع، ولذا دأب أئمة أهل البيت (عليهم السلام) على تمثل هذا الدور التحريضي على العلم ونشره وبث المفاهيم والأفكار في الأمّة من أجل إنهاضها عقليا

---

(١) إدريس هاني: ما بعد الرشدية، ص ٢٤٧.

وسلوكيا. وقد بلغت الحركة العلمية التي قادها أئمة أهل البيت(عليهم السلام) ذروتها في عصر الصادقين (عليهما السلام) وشهدت بروز حركة علمية متعددة الجوانب ومتنوعة الفنون، وخرّجت جيلا واعيا من العلماء والرواة والفقهاء، وفي مجالات شملت حتى الطب والكيمياء والهندسة فضلا عن الحديث والفقه وغيرهما. هذا على الرغم من الظروف السياسية الحرجة التي كانت تحيط بهم (عليهم السلام) ومحاربة السلاطين ووعاظهم لهذه الحركة.

وقد تحدّث المؤرّخ اليعقوبي عن هذه الحركة العلمية وزعيمها الإمام الصادق (ع) قائلا:

وكان افضل الناس، وأعلمهم بدين الله، وكان أهل العلم الذين سمعوا منه، اذا رووا عنه قالوا: أخبرنا العالم[1].

وبعد قيام هذه الحركة وتشييد هذه المدرسة الفكرية التأصيلية، قيّض الله سبحانه لها وريثا يوضّح رؤيتها ويديم أثرها ويطوّر بُنيتها في ذهنية الأمّة، فكان لها الإمام موسى بن جعفر (ع) الذي لقب أيضا ـ فيما بعد ـ بالعالم لكثرة علمه ومحاجاته ورؤاه التغييرية المستفيضة. وقد أكد الإمام الصادق (ع) على كونه هو الإمتداد الحامل لأسرار الغيب والقائم من بعده على إرث تلك المنظومة المعرفية

(١) تاريخ اليعقوبي: ٢/٣٨١/وفاة أبي عبدالله جعفر بن محمد وآدابه.

الإسلامية ومقاصدها الحقيقية، ليشير الى الأمّة فتتبع منبع النور بوحي من إرادتها وعزيمتها، ((استوصوا بموسى إبني خيراً، فانّه أفضل ولدي ومن أخلف بعدي، وهو القائم مقامي والحجّة لله عزّوجلّ على كافة خلقه من بعدي))[1].

وفي رواية أخرى:

((هذا وصيّ الأوصياء وعالم علم العلماء وشهيد على الأموات والأحياء))[2].

قال تعالى: ﴿وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم﴾[3]، فمن الصادق (ع) في تفسير هذه الآية أو تأويلها: ((نحن الراسخون في العلم ونحن نعلم تاويله))[4].

وحينما نضمّ مقدمة النصّ على إمامة الكاظم (ع) الى مقدمة أنهم (عليهم السلام) هم المقصودون بهذه الآية، نستنتج أن الإمام الكاظم هو الامتداد الطبيعي للمنهج العلمي الفذ الذي مارسه أهل البيت (عليهم السلام) في الحياة العامّة، وقائد هذا الإرث المعرفي العظيم.

وقد مارس هذا الدور القيادي الفكري فعلا في واقعه بشكل فعّال

---

(١) اعلام الورى للطبرسي: ٢٩٩. والارشاد للمفيد: ٢٩٠.

(٢) المناقب لابن شهرآشوب: ٣٢١/٤/في معالي أموره.

(٣) آل عمران/٧ .

(٤) تفسير القرآن الكريم لعبدالله شبّر: ٨٦ .

وبنّاء ومؤثّر، فعلى الرغم من معاناته وعذاباته والرقابة الشديدة التي تعرّض لها من قبل سلطات عصره كان (ع) صاحب مشروع علمي وتثقيفي يقضّ مضاجع الجهل ويدك أوكار التخلف، وتحمّل (ع) الكثير من أجل نشر وترويج القيم المعرفية ورفع المستوى الثقافي للمجتمع، ودحض شبهات المعاندين والسطحيين ـ كما سنقرأ في هذا القسم من الكتاب ـ وتمكن بعد جهد جهيد من تشييد صرح العلم والبناء المعرفي الأصيل في مقابل ما تشيّده السلطة من بناءات فكرية هشّة ومنحرفة عن منهج الشريعة وأهدافها.

ذلك الصرح العلمي الشامخ الذي شيّده الإمام (ع) بقي فنارا للأجيال المتعاقبة، ومنارا في ليل حقبهم البائدة... انجازات فكرية عظيمة تغذّي جسم الأمّة بنسغٍ من الأصالة الفكرية وشريان من الرؤى الواعية التي تتحرك مع الفرد والتأريخ والمجتمع، فشكل بتلك الحركة مقطعا زمنيا داميا من الزمن الطويل الذي يحتضن حركة الأنبياء وكفاحهم ضد قوى الشرّ والتخريب، مانحا للأمّة فرصة الانعتاق من وصاية الطواغيت على العقل الإنساني المبدع.

وكان الإمام خلفا لهذا الإرث كما نصّ على ذلك أبوه الصادق (ع) حينما تكلم يوما إمامنا الكاظم (ع) فأحسن الكلام: «يا بني، الحمد لله الذي جعلك خلفاً من الآباء وسروراً من الأنبياء وعوضاً عن الأصدقاء»[1].

---

(١) البحار: ج٤٨/٢٤/باب النص عليه/حديث٣٩ .

مدرسته العلمية

لقد شهد عصر الإمام (ع) موجة من الإنحراف ورواج الفرق والاتجاهات والطرق المبتدعة في مجال الاستنباط الفقهي، مما لا حجّة عليه ولا نصّ فيه، كالاستحسان والقياس والرأي وغير ذلك.

وكانت أكثر هذه الانحرافات عن المنهج العلمي الصحيح سببها إما السلطات وما يتبع ذلك من عمليات استقطاب وجذب للعلماء والرواة وأصحاب الفكر والأدب، وإما الابتعاد عن مصدر الإشعاع الفكري الأصيل عن أهل البيت (عليهم السلام) ورثة علم النبي والمؤتمنين على أسرار الشريعة. وكان الناس منقسمين الى جهلاء ومخدوعين ومتعصبين ومسخّرين، وهنا بزغ فجر مدرسة علمية ومنهج تأصيلي جديد مثّله الإمام الكاظم (ع) باعتباره وريثا لتلك المنظومة المعرفية المتكاملة، وجديدا باعتبار رشحاته الفكرية في فهم أبعاد النصّ النبوي الشريف وتطبيقاته مع متطلبات الحياة والواقع المعاش...

بدأ (ع) بإلقاء الدروس والمحاضرات ورواية الأحاديث والتواريخ، في فنون معرفية مختلفة؛ الفقه، الحديث، التفسير، العقائد، الأخلاق، التربية، فانحدر سيلٌ عارمٌ من الأفكار وطيفٌ محكمٌ من المعارف، وصبّ في الصميم من قلوب الوعاة من أصحابه وتلامذته ومريديه، فأسهم ذلك في وضع مناهج تفكير أصيلة وآليات تشريع صحيحة، أخذت ملامحها بالظهور والانكشاف لكل من ألقى السمع وهو شهيد،

وصارت حديث أصحاب العلم في الأمصار. وانخرط في سلك هذه الحركة العلمية عدد هائل من الطلبة وحملة الحديث، حتى من الطوائف الإسلامية الأخرى.

كان أحمد بن حنبل إمام المذهب الحنبلي يروي عن الإمام (ع) ويقول: حدّثني موسى بن جعفر قال: حدّثني أبي جعفر بن محمد ... وهكذا الى النبي (ص)، ثم يقول: وهذا الإسناد لو قريء على المجنون لأفاق[1].

ولقيه أبو حنيفة إمام المذهب الحنفي وسأله سؤالا فقهيا، فأجابه الإمام (ع) جوابا مفحما. قال أبو حنيفة: فلما سمعت هذا القول منه نبل في عيني وعظم في قلبي. ثم سأل سؤالا كلاميا عقائديا، فأجابه الإمام (ع) بمثل الأول، فقال أبو حنيفة: ذرّية بعضها من بعض[2].

قال ابن شهرآشوب: وروى له الخطيب في «تاريخ بغداد»، والسمعاني في «الرسالة القوّامية»، وأبو صالح المؤذن في «الأربعين»، وأبو عبدالله بن بطة في «الإبانة»، والثعلبي في «الكشف والبيان»[3].

فأيّة آلية اتبعها الإمام (ع) ليحاور بها الآخر المختلف معه فكرا ومنهجا وأسلوبا؟ وكيف أرغم الجميع باختلاف انتماءاتهم وآرائهم

---

(١) المناقب: ج٤/٣١٨/في معالي أموره.

(٢) المصدر السابق: ٣١٤، في علمه.

(٣) نفس المصدر: ٣١٦، في علمه.

على الإذعان والتسليم به كرؤية تشريعية ومصدر معرفي؟

إنّها لغة الحوار المستند إلى أسس علمية وبحثية وعقلانية، والتي تستبطن الاعتراف بالآخر المختلف معها، الاعتراف به كوجود وكيان لا يشهر الإمام اختلافه وميله سلاحا يجابهه به، بل يجابهه باللغة العلمية الهادئة ... فلنتعلم !

أما على مستوى الخاصّة فقد ذكرنا أن مدرسة الإمام (ع) خرّجت أكثر من ثلاثمائة شخص كلهم مسلحون بالعلم والوعي، تمكن بعضهم من التغلغل في داخل أجهزة النظام السياسي القائم آنذاك وقاموا بخدمة المبدأ وقضاء حوائج المؤمنين كعلي بن يقطين، وانتصب البعض الآخر للدفاع عن الفكر والعقيدة كهشام بن الحكم، وصمد آخرون في وجه الأساليب الإرهابية للسلطة كمحمد بن أبي عمير، وسنتعرض لانجازات هذه النماذج فيما بعد...

وهو الأمر الذي يرغمنا اليوم على التحدث عن صنع النخب ونحت مناهجها التفكيرية بدقة متناهية واحتضان ملفت للنظر، لتكون وسائط تحليل الواقع ومرايا اكتشاف الموقف المبدئي وسط الضجيج وفي الوسط الملغّم بالحيرة والشك والتقليعات ومشاريع الجمود والتبعية ..

تشخيص المنهج الاستدلالي

في خطوة بهذا الاتجاه تهدف الى تقرير منهج علمي استدلالي سليم، بعيدا عن المخاطر الناتجة عن ابتكارات بشرية محدودة ورؤى ضيّقة، خط الإمام (ع) المسار المنهجي الذي يوصل الى مقصود الشريعة ويعبّر عن إرادتها ويستكشف حكمها في مجالات الحياة والفكر والسلوك.

روي أن هارون الرشيد طلب من الإمام (ع) أن يكتب له كلاما موجزا له أصول وفروع، يفهم تفسيره، فكتب (ع):

«بسم الله الرحمن الرحيم: جميع أمور الدنيا أمران، أمرٌ لا اختلاف فيه وهو إجماع الأمّة على الضرورة التي يضطرّون إليها، والأخبار المجتمع عليها المعروض عليها كلّ شبهة، والمستنبط منها كل حادثة. وأمرٌ يحتمل الشك والإنكار، وسبيل استنصاح أهله الحجّة عليه، فما ثبت لمنتحله من كتاب مستجمع على تأويله أو سنّة عن النبي (ص) لا اختلاف فيها أو قياس تعرف العقول عدله، ضاق على من استوضح تلك الحجّة ردّها ووجب عليه قبولها والإقرار والديانة لها. وما لم يثبت لمنتحليه به حجّة من كتاب مُستجمع على تأويله أو سنّة عن النبي (ص) لا اختلاف فيها أو قياس تعرف العقول عدله، وسع خاصّة الأمّة وعامّها الشك فيه والإنكار له.

كذلك هذان الأمران من أمر التوحيد فما دونه الى إرش الخدش فما دونه. فهذا المعروض الذي يعرض عليه أمر الدين، فما ثبت لك اصطفيته وما غمض عنك ضوؤه نفيته، ولا قوّة إلا بالله حسبنا الله ونعم الوكيل»[1].

فهو (ع) بصدد ذكر ضابطة كلية لعملية الاستنباط والاستنتاج العلمي، سواءً في المجال الفقهي أو الفكري، تؤصّل الاستنتاج وتربطه بحدود الشريعة وطبيعة نظرتها المستوحاة من النص القرآني الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، والنصّ النبوي الذي لا ينطق عن الهوى، لئلا يتبع الباحث أو المستنبط مناهج ذهنية محدودة الرؤية وقاصرة الإدراك. قسّم الإمام (ع) الأمور الحادثة الى قسمين رئيسيين:

القسم الأول : ما اجتمعت عليه الأمّة من الأخبار، وهذا مما لا خلاف في نتائجه المستنبطة على أساسه.

والقسم الثاني : ما احتمل الشك والانكار، وهذا بحاجة الى:

امّا نص قرآني، وليس كل نصّ بل النصّ المجمع على تفسيره ومغزاه، لئلا تلوى أعناق النصوص القرآنية (وهي حمالة ذو وجوه) لصالح الأغراض والمنافع والسياسات والتقليعات الثقافية المختلفة.

---

(١) البحار: ج٤٨/١٢٤/باب مناظراته مع خلفاء الجور/حديث١، والاختصاص للمفيد: ٥٧، حديث أبي الحسن موسى بن جعفر(ع).

وامّا نص نبويّ (حديث)، وليس كل نصّ بل النصّ الذي لا خلاف فيه، لئلا تعتمد الأخبار غير الصادرة عن الحضرة النبوية مما كذب على النبي (ص) أو دسّ في منظومته الحديثية لنفس الأغراض والمصالح والسياسات.

وامّا حكم عقلي، وليس كل عملية يبتكرها الذهن البشري كالقياس أو المصالح المرسلة أو الرأي أو غير ذلك، لذا قال (تعرف العقول عدله).

وفيما عدا ذلك، فهو قابل للتشكيك والإنكار. وهي خطوة تأصيلية تربط الحداثة أو المعاصرة بالأصالة أو التاصيل، لحجز الأمّة عن اتباع مناهج وآليات غيرسليمة في مجال الاستنتاج، مما يؤدي الى نتائج معكوسة في مجال الحياة العامّة، ويخلق مجتمعا غير مستند الى روح الشريعة ومقرراتها وأهدافها، يسير بشكل عشوائي نحو الفوضى والخواء والفناء...

فالتجديد ينبغي أن يتمّ في إطار النصوص الإسلامية الثابتة، وإلا فهو ابتعاد عن الحقيقة وتقليد محض يكرّس إشكالية التبعية لإنتاج أزمات متتالية. (إنّ أصل الدين لا يمكن أن يستخلص من دراسة مجموعة الطقوس والشعائر الدينية حين تدرس بمنهج الملاحظة الاجتماعية أو الأسلوب الإحصائي أو دراسة الحالة أو المسوح

الاجتماعية وغيرها من مناهج علم الاجتماع. وأيّ دراسة من هذا القبيل لا تستعين بالوحي، فإنّما هي ضرب من الحدس والتخمين لا تمت إلى العلم بصلة)[1].

ولقد لمسنا نتائج وآثار المناهج الاستدلالية الأخرى، التي دمرّت البنية الفكرية للمجتمعات الإسلامية حيث اعتمادها على النصوص القرآنية بعد تفسيرها بشكل شخصي ذوقي، واعتمادها على الأحاديث المختلقة أو الحجج العقلية الظنّية التي لا تفيد الإطمئنان فضلا عن اليقين. فكانت النتائج هي التجسيم والتشبيه وجبر الإنسان وطاعة الحكومة الجائرة، وغيرها من الطروحات التي تسيء الى الفكر الإسلامي الأصيل وتشلّ قوى الإنسان وحركته في الحياة العامّة. ولازلنا نرى الآثار التدميرية الى وقتنا الحاضر. والسبب هو الابتعاد عن هذا المنهج الاستدلالي الممتد عبر الزمان والمكان من زمن النبي (ص) الى الأبد، فتشوّهت نظم الحياة واختلت عملية التفكير، فكان الإستعمار والغزو الثقافي الحديث...

ومن لطيف الكلام، أنه (ع) في فقرة الدليل العقلي، جاء بصيغة (العقول) يعني أن يتعارف العقلاء على الحكم. فمن المحتمل أن يدّعي إنسان انّ هذا الحكم عقلي، لكن لا يقاس الدليل العقلي صحة وفسادا

---

(١) منصور المطيري: الصياغة الإسلامية لعلم الاجتماع (الدواعي والإمكان)، ص ٦٣، سلسلة كتاب الأمة.

بما يتوصل له عقل الانسان الواحد أو بادّعائه القطع فيه. اذ سيفتح الباب أمام القطوعات الشخصية والذاتية لا النوعية، ويدّعى انّها أدلة عقلية تفيد اليقين، فتختلّ النظم من جديد حينما تدخل مبرراته وميولاته، وتحجم عملية التفكير أو تعكس وجهتها...

ولهذا تجد تأكيد الإمام (ع) على العقل كقيمة علمية متحضّرة وفاعلة في عملية التفكير وتوجيهها بالإتجاه السليم، وسنقرأ طرفا منها في وصيته (ع) لهشام بن الحكم فيما بعد... أمّا هنا فنريد أن نلقي نظرة على مجموعة متميزة من اصحاب الإمام (ع) لنتلمس مدى عبقرية الإنجاز العلمي الذي تميزّت به مدرسة الإمام الكاظم (ع) وما هي إبداعات خرّيجيها...

نظرة في أصحاب الإجماع

أصحاب الإجماع هم ثمانية عشر رجلا ، ستة منهم من أصحاب وتلامذة الإمام الكاظم (ع)، وهم: يونس بن عبدالرحمن وصفوان بن يحيى ومحمد بن ابي عمير وعبدالله بن المغيرة والحسن بن محبوب وأحمد بن محمد بن أبي نصر. وهؤلاء متميزون بالعلم والفقه والوثاقة والورع، بحيث اقرّ علماء الشيعة لهم بذلك، وأجمعوا على تصحيح ما يصحّ عنهم وتصديقهم[1] .

---

(١) اختيار معرفة الرجال للكشّي: ٥٥٦ رقم ١٠٥ .

والهدف من تسميتهم دون غيرهم هو تبيين أن الأحاديث الفقهية تنتهي اليهم غالبا. فكأن الفقه الإمامي مأخوذ عنهم، ولو حذف هؤلاء وأحاديثهم من بساط الفقه لما قام له عمود ولا أخضّر له عود[1].

وهذا الإنجاز الذي أبدعته مدرسة الإمام الكاظم (ع) انجاز حيوي في المنظومة المعرفية للشيعة الامامية، اذ تبتنى عليه قواعد ونظريات مختلفة تشكل نواة علم الرجال الذي اتخذته الشيعة كوسيلة علمية لتنقيح الأحاديث الصادرة عن أئمة أهل البيت والنبي (ع). ومن مهمّات هذا الفن (علم الرجال) هو التعامل مع أصحاب الإجماع كاحدى طرق التوثيق العامّة. ولوجود هذه الطريقة من التوثيق المبتنية على وجود (أصحاب الإجماع) تدخل آلاف الأحاديث الخارجة عن حريم الصحّة الى حدودها أو يجري عليها حكمها[2].

وسرّ الإنجاز يكمن في انّ هذه الشخصيات العلمية الستّة التي تعهدها الإمام (ع) بالتربية والتنضيج والإعداد العلمي، تحمل في أذهانها كمّا هائلا من الروايات والأحاديث المقطوعة من حيث صدورها عن الوحي، وتتوزع هذه الأحاديث عبر فنون مختلفة على شتّى مناحي الحياة، مما يثري المنظومة الفكرية ويبلور رؤيتها تجاه الحياة والكون والمجتمع والإنسان.

---

(١) كليات في علم الرجال للسبحاني: ١٦٨ .

(٢) مستدرك الوسائل للنوري: ج٣/٧٥٧ (الطبعة الحجرية).

هذا من جهة، ومن جهة أخرى انّ هذه الأحاديث الكثيرة مما يطمئن بصدورها، فتشكل بذلك مادة للباحث على طول التأريخ، في مقابل أحاديث أخرى خلفها المخرّبون والعملاء بين مصادر الفكر الإسلامي، فيكون المستنبط لحقائق الإسلام في أيّ عصر مرتكزا على مادة علمية نقية تقود الى نتائج نقية. فيما تقود الأحاديث المشبوهة والمدسوسة الى تشويه في المنهج واختلال في النتائج وتسرّب لآثار تلك الأعمال التخريبية الى النظم المعرفية الإسلامية. فمن الطبيعي أن يساهم وجود طريقة توثيقية من هذا النوع في تنقية النتائج الاستنباطية المبثوثة في مجالات التشريع المختلفة.

وهذا السياق ضروري لكل عملية استنتاج فكري وجهد تجديدي مقبل، إذْ يغرس القراءة الإسلامية الجديدة للواقع ومعطياته المتناسلة والمتلاحقة في وجوده المرجعي الخاص من التشريع، فتكون القراءة حديثة بحداثة تأصيلية مغروسة في وجودها المصدري. ومن دون ذلك تكون القراءة متأرجحة عائمة بلا جذور، وبالتالي عرضة للأذواق الشخصية والاتجاهات النفعية المؤدلجة. وكل ذلك بعدٌ عن الحقيقة والصواب ...

نماذج حيّة من مدرسة الإمام (ع)

لقد خرّجت مدرسة الإمام الكاظم (ع) كادرا علميا ناضجا وواعيا، ضرب المثل في الصمود والدفاع عن المبدأ والفكر والعقيدة

تفنّن الإمام (ع) في صنعه ونحته، فبقي خالدا تُردّد انجازاته ذاكرة التاريخ والزمن، مشيرة الى مدى القدرة الإبداعية التي يختزنها بنو البشر حينما ينتهجون المنهج العلمي والفكري الأصيل. ونحن اذ نفتخر بأن في مذهبنا أبطالا وجهابذة من هذا النوع، فنحن نضعهم نصب أعيننا في حركتنا وكفاحنا الحاضر وسيرنا باتجاه الرقي والتكامل باعتبارهم يحملون بصمات فكر الإمام (ع) واثره الإبداعي.

ونحن هنا نأتي بثلاثة نماذج حيّة معطاءة للتدليل والإشارة على انّ للباحث أن يكتشف القدرة الإبداعية لسائر خرّيجي مدرسة الإمام (ع) الذين ينيفون عن الثلاثمائة شخص...

١ ـ ابن أبي عمير... منهجية تكاملية بين الفكر والواقع

هو الفقيه الكبير والمحدّث الشهير المبدئي الصبور محمد بن أبي عمير زياد بن عيسى الأزدي، أبو احمد البغدادي. لقي الإمام الكاظم (ع) وسمع منه الفقه والحديث، وأخذ عنه الحكمة والكلام، وأحكم فهم النظرية المعرفية الإسلامية، ورزق الصبر عليها والصدق في تطبيقها، واثرى الفكر الشيعي والمكتبة الإسلامية بالكثير من المؤلفات، عدّت اربعة وتسعين كتابا، سال عليها المطر أثناء حبسه في معتقلات السلطة العباسية، فتلفت.

وكان ابن أبي عمير ممن أغنى الموسوعة الحديثية الشيعية بروايات جمة أنهاها البعض الى (٥٣٦٠) موردا، كلها تطفح بالفكر

والوعي والمعرفة مما جادت به قريحة أهل البيت (ع) وفاضت به ذهنيتهم الشريفة لتوجيه الأمّة في مجالات التشريع الحياتي والأخلاقي والسياسي والاقتصادي.

روت عنه كوكبة من العلماء والرواة الكبار أمثال إبراهيم بن هاشم الكوفي ناشر حديث الكوفة في قم، والحسين بن سعيد الأهوازي صاحب المؤلفات الكثيرة، وأحمد بن محمد بن عيسى القمي الذي كان زعيم القمّيين ووجههم في عصره، والبرقي وابن محبوب وابن مهزيار وابن شاذان وكثير غيرهم.

أضف الى ذلك صموده الفريد ومعاناته الكبيرة في سبيل التحرّك الرسالي الواعي لنصرة المبدأ الحق ونشر قيم الفضيلة ومحاربة الاستبداد والانحراف، فكان مصدر قلق الحكام الذين أودعوه السجن وعرّضوه لألوان من التعذيب والاضطهاد. ضرب مائة سوط ليدلهم على مواضع الشيعة وأصحاب الإمام الكاظم (ع)، فتقوّى وصبر ولبث اربع سنين في سجون الرشيد وتحت ضغط أجهزته القمعية.

خرج من السجن فقيرا، صادرت السلطة أملاكه ـ وقد كان ثريّا ـ فلم تزعزعه المحنة أو تثن عزمه عن مواصلة السير، فجلس يتذكر ما كان في ذهنه من الأحاديث والروايات، مستجديا ذاكرته المتعبة لعلها تساقط عليه أنفاسا من تلك المعرفة الكاظمية، بعد ضياع كتبه وتلفها، فكان يتذكر المتن والدلالة للرواية ولا يتذكر سندها، فيرسلها بدون

سند. غير انّ السنن الإلهية شاءت مكافأته، فصارت مراسيل ابن أبي عمير حجّة كلها على خلاف القاعدة في علم الرجال، ثقة بمحمد بن أبي عمير واطمئنانا بخلقه الرفيع الذي يحجزه عن الكذب والاختلاق أو الاثبات لما لم يقطع بصدوره، واجلالا لمعاناته الربّانية...

كان ـ الى جانب ذلك كله ـ عابدا متنسكا طويل الخشوع والسجود دائم الذكر، ذا مقام علمي واجتماعي رفيع عند علماء عصره. وكانت داره قبل المحنة مقصدا للمشايخ وأهل العلم والفضل، ينظرون إليه بإجلال وإكبار، حتى أن كبير المتكلمين آنذاك وفيلسوف الشيعة هشام بن الحكم حينما اراد مناظرة هشام بن سالم الجواليقي اختار ابن أبي عمير حكما، وارتضى أن تقع المناظرة في داره تسليما بدينه وعلمه وورعه...

واستمرّ على هذا المنوال بعد رحيل الإمام الكاظم (ع) استاذه ومربّيه، وواكب عصر الإمام الرضا (ع) وتنوّر بتوجيهاته وازداد إصرارا على مبدئه،فصنّف كتابا في المسائل التي أخذهاعن الإمام الرضا (ع)[1].

وهذه ومضة شعّت على سطح هذا الكوكب، بعثها الوجود المبارك للإمام الكاظم (ع). تعاملت مع الفكر بطريقة حضارية راقية حوّلته

---

(١) أخذت الترجمة من : معجم رجال الحديث للخوئي: ج١٤/٢٧٩، برقم١٠٠١٨، والأعلام للزركلي: ج٦/١٣١، وقاموس الرجال للتستري: ج٨/٣ .

الى وعي وصمود في الواقع والمحنة السياسية، وحوّلت هذا الكيان العلمي الى مؤسسة تقاوم وتصون وتبني.

قال السيد الشهيد محمد باقر الصدر: إذن فليست المشكلة مشكلة هذا الفرد أو هذا الفرد، وانّما هي مشكلة هذا الوجود الكلي لكل هؤلاء الأفراد. وهذا الكيان (الحوزة العلمية) كما قلت ليس كيانا قد وصل إلينا مجانا حتى نستطيع ـ أو حتى يجوز لنا ـ بمبررات الهزيمة النفسية أن نسلمه بسهولة، أن ننسحب عنه باختيارنا، أن نضيّعه بأنفسنا... إنّما هو كيان وصل إلينا عبر تاريخ مليء بالتضحيات والعمل الصالح والجهاد الصالح، هذا هو الكيان الذي تسرّبت في كل أرجائه الآلام التي عاشها محمد بن أبي عمير في سبيل إنشائه...[1].

وقال الشهيد مرتضى مطهري: ((ويقترن تاريخ العلم بالآلام والمصائب والمتاعب وألوان الحرمان التي تحمّلها العلماء في سبيل تحصيل العلم، ففاضت حياتهم المادية بالمرارة ... وكلما كانت المعرفة أقرب إلى اليقين وأدنى إلى تبديد الشك والجهل وأقرب إلى الكلية والشمول بحيث تكشف ستارا أكبر، فإن أهميتها تزداد والطلب لها يشتدّ))[2].

نعم، كما رفض ابن أبي عمير أن يعيش في دوّامة المصطلحات

---

(١) كرّاس المحنة: ٣٢ .

(٢) مقدمة كتاب: أسس الفلسفة والمذهب الواقعي، للسيد محمد حسين الطباطبائي، ص٩.

والفخر العلمي، ونزل الى ساحة الصراع بعلمه وثقله، واخرج نفسه وجسده من الرخاء والعيش الوثير الى سوح الجهاد وزنزانات السلطة، ضاربا بذلك المثل على قدرة العالم والمفكر ودوره في تحريك القيم والمفاهيم...

وبعد، فالحاضر يحتّم على كل عالم ومفكر وباحث معاصر أن يلامس الواقع ومجرياته ومتطلباته وأن يعيش همّ مبدئه ومجتمعه وأمّته وقضاياها المصيرية وتحدياتها المختلفة... لاسيما وانّ العلوم والمعارف التي صنعت محمد بن أبي عمير لازالت بأيدينا الى وقتنا الحاضر، وهي قادرة على صنعنا أيضا...

في خضم دوّاماتنا نحن، ينبعث التشكيك قويا وفعّالا حول قدرة الإسلام على إبراز رؤاه وطروحه تجاه المستجدات الثقافية المختلفة .. والحقيقة أنّ العجز ليس في الفكر الإسلامي بل فيمن تبنّاه في هذه المرحلة الزمنية، إذْ إنّ العالم والباحث الإسلامي لم يبذل ما بذله محمد بن أبي عمير ـ مثلا ـ، بل راح يصفّ الأحاديث المختلفة ويتعامل مع النصوص بطريقة ستاتيكية ... إنّ قليلا هم الذين يكلفون أنفسهم البحث في مصادر الآخرين لمطالعتها ومناقشتها، فيبقى الأنا والآخر مفرّدين على انفراد بدون ملاحظة أحدهما الآخر أو التحاور معه. الأمر الذي يكرّس عزلة الفكر الإسلامي المعاصر ويجمّد حركته وينعته بالعجز والتقليدية ..

٢ ـ هشام بن الحكم، الذود عن أصالة الفكر

هشام بن الحكم، أبو محمد الكوفي. كان من تلامذة الإمام الصادق (ع) ثم صار من خواص تلامذة الإمام الكاظم (ع) من بعده، وأخذ عن الإمامين، فصار أحد أعلام الفقه والحديث والتفسير وسائر العلوم، حتى تخصّص في علم الكلام وفنّ المناظرة والفلسفة، فكان فارس هذا الميدان، متكلما متبحّرا وناظرا جريئا حاضر الجواب سريع البديهة. فتق الكلام في الإمامة وهذّب المذهب بالنظر على حدّ تعبير المؤرّخين.

روي أنه سُئل عن معاوية، أشهد بدرا؟ قال: نعم ، من ذلك الجانب!

روى هشام كثيرا من الروايات في الأحكام والعقائد والكلام وغير ذلك، مما بلغ مائة وسبعة وستّين موردا. وكان له كتاب (أصل) رواه عنه جماعة كما ذكر الشيخ الطوسي.

عُرف بمناظراته ومحاجاجاته الكثيرة،والتي كان يخرج منها جميعها فاتحا منتصرا. كان يناظر الكفرة والملحدين، فيرجع الكثير منهم الى جادّة الصواب والتزام الحقّ، بعد أن يلزمهم بالحجّة القاطعة ويحاصرهم بالبيان العلمي الرصين. كما ناظر المعتزلة التي كانت تشهد في العصر العباسي حركة كلامية جدلية. وفي كل تلك

الجولات كان هشام يشهر في وجوه خصومه علم الإمام الكاظم (ع) سلاحا صارما ومقنعا.

يتوقد فطنة وذكاءً، ويتسلح بالعلم والإخلاص للمنهج الفكري الأصيل ، حتى أثارت له إنتصاراته حسدا من خصومه وأعداء مذهبه، فاتّهموه بالقول بالتجسيم وغير ذلك. وكان الجاحظ من أشدّ الناس عداوة لهشام، فنسب إليه التهم للحط من مقدرته العلمية وفتوحاته الفلسفية ، فلم يتمكن من ذلك، وبقي هشام موضع تقدير كبار الفلاسفة ومتكلمي الإسلام. ولسنا بصدد الردّ على الجاحظ الذي قال فيه ابن أبي داود: الجاحظ أثق بظرفه ولا أثق بدينه![1].

ولهشام مؤلفات تدلّ على تبحّره في علوم عدّة. وقد ذكر له ابن النديم في ((فهرسته)) خمسة وعشرين كتابا. منها: الفرائض، التوحيد، الردّ على الزنادقة، الإمامة، المعرفة، الدلالات على حدوث الأشياء، الردّ على ارسطوطاليس، الجبر والقدر، وغير ذلك[2].

لقد شهد ذلك العصر حالة من اهتزاز القناعات والتشويش الفكري نتيجة لرواج علم الكلام بصورته الوضعية العقلية المحضة،

---

(١) الامام الصادق والمذاهب الأربعة: ج٣ — ٩٣/٤، نقلا عن ((تاريخ بغداد)) للخطيب ، وراجع الطعون الأخرى...

(٢) أخذت ترجمة هشام من: معجم رجال الحديث: ٢٧١/١٩، وأعيان الشيعة للسيد محسن الأمين: ج١٠/٢٦٤.

مما هيّأ لأصحاب الأفكار والفلسفات المنحرفة أن يبثّوا أفكارهم في ارضية خصبة لهم، وظهرت فرق ونحل منحرفة عن المنهج الإسلامي الصحيح. هنا يأتي هشام بن الحكم مشروعا أعدّه الإمام (ع) لموازنة صراع الأفكار مسلحا بكافة أساليب الدفاع العلمي والهجوم والتأسيس، فتمكن ببراعة من أداء الدور، وارساء ملامح فلسفة إسلامية عقائدية وردّ كثير من هجمات الأفكار وتقليعات الأذهان...

وأرجع المقولات إلى مبادئ كونية عامّة استقاها من علم أستاذه الكليم (ع)، وهذا هو مجال الفلسفة فهي (لا تدرس هذا المجال المعيّن أو ذاك من مجالات الوجود) لأنّها في نظر الفلسفة أشياء جزئية لا تمثّل روح الحقيقة، (وإنما تدرس الكون كله أو الوجود ككل أو كما يقال في المصطلح الفلسفي: الوجود بما هو وجود أو الوجود بما هو كذلك، أعني أنّها تحاول أن ترى الكون بوصفه نسقا واحدا مترابطا من الأشياء. وهي ـ من هذه الزاوية ـ يمكن أن توصف بأنّها علم الأشياء بصفة عامة)[1].

علي بن جعفر، نموذج الولاء للقيادة الشرعية

هو أخو الإمام (ع)، سمع من أبيه الصادق (ع) قليلا من الحديث لصغر سنّه آنذاك. ثم تربّى في كنف أخيه (ع) وقضّى حياته في ظل

---

(١) د. إمام عبد الفتاح إمام: مدخل إلى الفسلفة، ص ٢٤.

نهجه ومدرسته، وأخذ عنه طيف العلوم والمعارف الإسلامية، وكان يدين الله بحبّه والولاء له والتشرّف بخدمته. فكان عالما جليل القدر، وشيخا مبجّلا، حتى قيل في حقه: انّه كان من الفضل والورع على ما لا يختلف فيه إثنان.

روى كثيرا من علوم أهل البيت (ع) وأحاديثهم، وبلغت رواياته في الكتب الأربعة ثلاثمائة وخمسة وخمسين موردا، روى جلها عن أخيه موسى (ع). وصنّف كتابا قيما وتراثا ضخما، صار أحد مصادر التشريع الإمامي، وهو مجموع مسائله التي أخذها عن أخيه (ع)، وتُعرف بمسائل علي بن جعفر ـ وقد طبع مؤخرا ـ وكتابا آخر في المناسك.

ومن لمسات الوعي عند هذا العالم الجليل، أنه عمّر وأدرك إمامة الرضا (ع) ابن أخيه، فصحبه ودان له بالولاء والطاعة، وروى عنه. ثم ادرك إمامة الجواد (ع) ابن ابن أخيه[١]، فكان يدين له بالولاء والطاعة والتسليم، ويبجّله ويخدمه ـ وهو شيخ كبير السنّ ـ حتى عاب عليه البعض ذلك، فكان يقول لهم: اذا كان الله عزّوجلّ لم يؤهّل هذه الشيبة، وأهّل هذا الفتى ووضعه حيث وضعه، أأنكر فضله؟[٢].

---

(١) تسلم الإمام الجواد (ع) مهام الإمامة وهو صغير السنّ.

(٢) أخذت الترجمة من: معجم رجال الحديث: ج١١/٢٨٨،٢٨٤. وأعيان الشيعة: ج٨/١٧٧ .

هنا حيث تتعرض الإمامة ـ ذلك المحور الإسلامي المفصلي ـ الى حملات تشكيك وإنكار، بل وادعاء أيضا، حملات يطلقها المنتفعون تارة والسلطان تارة أخرى. ويقف البعض على إمامة الكاظم (ع) طمعا بما في أيديهم من الأموال والحطام. في هذا الوقت الذي تحاول فيه القوى الانتهازية سلب مقام أهل البيت (ع) وتشويه دورهم القيادي في الأمّة، يأتي صوت علي بن جعفر حاملا بصمات وعي الإمام (ع) مستوعبا الحقائق الدينية، مدويا في عالم الانحراف الفكري جاعلا ذلك مائزا جوهريا في خضم صراع الميول والاتجاهات وبوصلة تشير الى سلوك المحجّة البيضاء.

لقد واكب علي بن جعفر الإمامة في مراحلها الأربع، وشهد الراية وهي تسلم من إمام لآخر، فيسندها بكل ما أوتي من علم وقدرة، متفانيا في خدمة منهجها ومشاريعها التربوية، واثق الخطى، مرخصا كل شيء في سبيل إيصال نورها وآثارها الإصلاحية الى البشرية...

وكان أسمى نفسا من المؤامرات، وأشد وعيا من المخرّبين، حيث أجاب أنّ الإمامة رئاسة عامّة في الدين والدنيا، فلا يترأسها في المجتمع الإسلامي إلا من ارتضاه الله ونصّ عليه النبي (ص).

والإمام هو الشخص الحائز على الشروط والمزايا التي يعجز عن تحصيلها غيره من أبناء عصره، والمثل المتكامل الذي يقود البشرية باتجاه الخير والفضيلة والعطاء، حتى لو كان صبيا، لأن الذي نصّبه

هو أعلم بشأنه، فكيف لي أنا ـ هذا المحدود من حيث الرؤية ـ أن اعترض عليه أو أسلبه حقه؟ انّ من واجبي هو الولاء والتأييد لاسناد المشروع الإلهي العظيم المودع من أجل خير البشرية جمعاء. ولا يكفي في الإقناع أن أرى نفسي أنا مؤهلا للإمامة والقيادة، كما لا يكفي أيضا أن تراني أنت مؤهلا لها. لأن (أنا) و(أنت) و(هم) كلها قاصرة عن اصابة عمق الحقيقة وقلب الواقع وروح الهدف.

فالمقياس هو أن ترانا الحضرة الإلهية مؤهلين لهذا المنصب فتختارنا، ولم ترنا كذلك، ورأت هذا الصبي مؤهّلا، فمادمنا مسلمين مؤمنين بضرورة قيام مجتمع إسلامي متكامل فما علينا إلا التسليم للارادة الإلهية والسير وفق برنامجها العلمي والعملي.

هذه هي الترجمة الثقافية لجواب علي بن جعفر، وما علينا الآن إلا أن نستخلص قيمة هذا الجواب التاريخي ونحاول أن نجد له أصداءً موازية في حياتنا المعاصرة التفافا حول نهج الأئمة، وسلوكا على ضوئه...

وهذا ما يوازي اليوم بحثا في واحدة من أخطر إشكاليات الواقع الراهن، وهي الإثنينية التي قد تحدث لدى أصحاب المناهج ذات التفكير الحرّ الذي لا يرى نفسه مقيدا بمرجعية فكرية معيّنة، وقد يطرح نفسه فكرا ومنهجا كبديل عن المنهج أو النّص الإسلامي أو المرجعية التشريعية الإسلامية .. يحدث هذا حينما يستجدّ في الواقع

ظواهـر وأفكار وأشياء ومستجدات علمية أو ثقافية أو حينما ينظر إلى الصـراع الفكـري الحـادّ بين العـرب والمسلمين مـن جهـة وبين منتجات الغرب من جهة أخرى. وبما أنّ النص الإسلامي الصادر عن أئمة أهل البيت (علـيهم السلام) يتطلب جهدا ووعيا وبحـثا وكشفا وتحليلا بشكل معاصـر ملائـم لحـركة الواقـع ومستجداته ـ وهـو غـير متوفـر بحجـم الصـراع وعمـق طـروحاته ـ، فـبدلا مـن السـعي لـبذل هـذا الجهـد واستنطاق النصـوص لعقلنة الظواهـر، تـراه يطـرح فكره أو فكر الآخر وخطابه المعمّق بـديلا عـن ذلـك، إذْ يـراه مـؤهلا لمخاطـبة إشـكاليات الواقع ولا يرى النصّ مؤهلا لذلك ...

والحقّ إنّ النصوص الإسلامية ذات مادّة غنيّة قادرة على الحديث عـن الحداثـة والعقلانـية وحـوار الحضـارات والمجتمع المدنـي والنهضـة المعاصـرة والعـولمة والاقتصـاد والأدب الحـديث وغـير ذلـك ... لكـنّها بحاجـة إلى تنقيب وكشف واستنطاق وربط وتحليل ورسم ستراتيجية للـتعامل مـع هـذه الطـروحات بمـا يمـنحها صـفة الـرؤية الإسـلامية ويتجافـى بالعملـية عـن الاتـباع والتقلـيد للـنماذج المقـروءة في ثقافـات الآخـرين ... وهـو الأمـر الـذي نـتعلمه مـن علـي بـن جعفـر الـنموذج الكاظمـي المتميّـز حـيث أطـر اجـتهاده وتجديـده وحـركته بالـنّص الإسلامي الصادر من أهله الحقيقيين، ودان لله بهذه العملية.

الفصل الثاني

الارتقاء بالمستوى الفكري للأمّة

لم يقتصر نشاط الإمام الكاظم (ع) على تشييد مدرسة علمية ذات كادر واعٍ ومسلح، بل حاور وعي الأمّة بكافة مستوياتها، وتحرّك باتجاه تأسيس الخطاب الفكري للارتقاء بوعيها الى مستوى النضج والمسؤولية، والأخذ بيدها لتفعيل طاقاتها الكامنة فيها، اذ سجّل له التأريخ روائع قيمة بهذا الصدد، توجيهات ووصايا ومناظرات ومسائل فقهية معقدة، خاضها مع المشككين والسلاطين وأرباب المذاهب كلها ذات مضامين اجتماعية وتشريعية واقتصادية وسياسية يختزلها خطاب فكري رصين ، يعادل الخطابات النفعية والسطحية المحاكة من قبل فئات متعددة ـ كما سنرى ـ ...

أولاً : توجيهاته

وأهمّها تلك التي وجهها لهشام بن الحكم وهي تقطر بالمفاهيم السامية والقيم العميقة، حيث منح العقل فيها مكانته اللائقة من حركة البناء والتفكير، وكشف عن سرّ إيداع الخالق لهذا الجهاز الدقيق في التركيبة العضوية للإنسان، فبشّر الإمام (ع) في بدايتها

أصحاب العقول النيّرة لما هم عليه من النعمة والصلاح والخير، وما يتمتعون به من سلامة الفكر ورسوخ الإيمان:

«يا هشام، انّ الله تبارك وتعالى بشّر أهل العقل والفهم في كتابه، فقال: ﴿فبشّر عبادِ الذين يستمعون القول فيتّبعون أحسنه، أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أُولوا الألباب﴾»[1].

ثم بيّن له أن العقل هو متمم الحجّة على الإنسان، لأنه هو الذي يحرّكه لاتّباع الدستور الإلهي الذي جاء به الأنبياء والأئمة الهداة (ع)، ومن دون هذا الجرس الداخلي الذي يرنّ في أعماقه لا ينبعث الإنسان لأخذ موقعه الحقيقي من تمثّل قيم ذلك الدستور والسير على ضوئه، أي أن العقل هو الذي يدفع الإنسان لقطف ثمار حركة الأنبياء عبر سلوك فعّال وبنّاء ومنتج...

وقد أصبحت للعقل هذه الدافعية والمحركيّة لأنه مصمم على أن يحكم بوجوب الاتّباع وضرورة التمسّك بالمنهج الفكري الصحيح. فإنّ للعقل بما هو جهة مدركة للأشياء والأفكار وجهان:

أحدهما : وجه منفتح على الفهم وصحة الرؤية وكشف الحقيقة.

والثاني : منفتح على الجهل والبهر والهذيان الأسطوري واستمرار

---

(١) الزمر /١٧ ـ ١٨ .

الخطأ وما إليها ... ولكن خليقٌ بالعقل أن نقول عن وجهه السليم أنّه مولوده، فإنّه من الواضح أن وسيلة العلم الصحيح واستكناه حقائق الأشياء في الإنسان هي العقل[1] . من هنا يقول الإمام (ع):

((يا هشام ، ان الله تبارك وتعالى أكمل الحجج بالعقول)).

ثم ساق له الآيات الكثيرة التي تشيد بأصحاب العقول المنفتحة فيما دلل على ضدّ ذلك أي اهمال العقل وتحجّره من خلال ابراز آثار هذه الظاهرة السلبية وما ينتج عنها من ضياع وهلاك واختلال للنظم وتعاسة المجتمع. استدل على ذلك بأحوال الأمم الماضية وما آل إليه حال تكذيبهم لأنبيائهم وإيذاء صلحائهم، أولئك الأنبياء والصلحاء الذين يدعون الأمّة الى الانعتاق والتحرر من عبودية الذات والأصنام والطواغيت.

ومن الطبيعي أن مناهضة دعوة من هذا النوع يعني تهميش العقل وترك تحكيمه، مما ادّى الى نتائج وخيمة؛ هلاك في الدنيا ومصير مرعب في الآخرة،

((يا هشام ، ثم خوّف الله تعالى الذين لا يعقلون عقابه، فقال تعالى ﴿ثم دمّرنا الآخرين وانكم لتمرّون عليهم مصبحين وبالليل أفلا تعقلون﴾[2] ياهشام ثم ذمّ الذين لا يعقلون فقال:

---

(١) راجع: الإنسان وما حوله: مسعود محمد، ج ٢/ ص ٤.

(٢) الصافات / ١٣٦ ـ ١٣٨ .

﴿وإذا قيل لهم اتّبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتّبع ما ألفينا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون﴾»[1].

ثم ذكر لهشام وصية لقمان الحكيم لابنه التي تضع المقياس والمعيار للخروج بسلامة النفس والمبدأ من أمواج الفتن والدنيا وصراع العلائق المادية. يقول (ع):

«يا هشام: انّ لقمان قال لابنه: تواضع للحقّ تكن أعقل الناس، وانّ الكيّس لدى الحقّ يسير. يا بني انّ الدنيا بحر عميق قد غرق فيها عالَمٌ كثير، فلتكن سفينتك فيها تقوى الله، وحشوها الإيمان، وشراعها التوكّل، وقيّمها العقل، ودليلها العلم، وسكانها الصبر».

فالتمسّك بالتراث والماضي، لابدّ أن يكون بتجاوز أشكاله ومواقفه وخصوصياته الزمانية والمكانية والتي تمثّل سطحه المتغيّر، ومن ثم اختراقه نحو العمق والقاع الذي يمثّل قيمه المطلقة الإنسانية، لأن الأشكال والأوضاع يتوجب زوالها لزوال فعلها بزوال الظروف التي كانت سببا في نشوئها. لذلك يسوق الإمام (ع) تجارب الأمم الماضية التي فشلت في التحاور مع مصلحيها وأنبيائها.

فلاحظ منهجية التعامل مع التراث والتاريخ والماضي؛ انه (ع) يكتشف من ذلك الشريط الزمني المنصرم قيما حضارية راقية

---

(١) البقرة/١٧٠ .

كالعقل والتوكل والعلم والتقوى والإيمان والصبر، ليحوّلها (ع) الى مفاهيم يخاطب بها الأجيال، وهي منهجية تتوسط بين الانفصال عن التاريخ والغائه من قاموس حركة النهضة والإصلاح وبين الجمود عليه والنسج على منواله، وتتعامل مع قيم التاريخ المكتشفة لتوظيفها في خطاب معاصر لأجياله والأجيال القادمة على طول الزمن...

وهذا النمط من التحاور مع الماضي الأكثر عقلانية وانفتاحا من الاتجاهين السابقين (الانفصال التام والاتصال التام)، وهو ليس تلفيقا لهما، لأنه يفسح المجال أمام الإنسان لارتباطه بحاضره من خلال مرآة ارتباط القديم بحاضره، وكلاهما موقف محاور للمستقبل ومعانق للحاضر. غير أنّه يلغي قداسة أشكاله المتغيرة. وإذا كان التأريخ أو التراث (حركة تناقض وتنوّع لا إنسجام وتآلف) كما يدّعي أصحاب اتجاه الانفصال التام عنه فمن الممكن الاستفادة من هذا اللاتجانس التأريخي في الجانب المتحوّل من الثقافة المعاصرة من خلال فهمه على أنّه حاصل في الفهم والرؤية التطبيقية لثوابت النصوص الإسلامية، فيتم اختيار النموذج التطبيقي الأمثل (أئمة أهل البيت (عليهم السلام)) ضمن رؤية فلسفية جمالية تختص بكل فاصلة وبكل مبدع.

هذا من ناحية ومن ناحية أخرى: لابدّ أن نفرّق بين اندماج التراث في الذات واندماج الذات في التراث، وذلك يتطلب التمييز بين

قراءة التراث كانتاج تأريخي فحسب، وقراءته كعطاء إنساني ذاتي أيضا ـ كما يقول الجابري[1] ـ. في هذا السياق نفهم حثّ الإمام الكاظم (ع) على الاستفادة من العقل في عقلنة التعامل مع تجارب الأمم السابقة وتوظيفها في متطلبات الحاضر...

كما نبّه (ع) على العوامل التي تجمّد حركة العقل وتحجّم دوره في الحياة الإسلامية، والآفات التي تصيبه فينتكس ويصدأ كطول الأمل الذي يشلّ حركة التفكير فيه.. والفضول الذي يذهب بحكمته ورونقه، والشهوات التي تطفي نوره، وخسارة العقل تعني الشقاوة الأبدية، قال (ع):

> «يا هشام: من سلّط ثلاثاً على ثلاث، فكأنما أعان على هدم عقله، من أظلم نور تفكيره بطول أمله، ومحا طرائف حكمته بفضول كلامه، وأطفأ نور عبرته بشهوات نفسه. فكأنّما أعان هواه على هدم عقله. ومن أفسد عقله أفسد عليه دينه ودنياه»[2].

أقول: وهذه الوصيّة لازالت خالدة عبقة ثرّة المضامين والأبعاد، اذ لازال العقل الإنساني مطالبا بالتدخل في صياغة الفكر وبناء الحياة والتعامل المثمر مع مفردات الوجود، في خضم هذا الركام الهائل من

---

(١) نحن والتراث: محمد عابد الجابري، ص ٢٥.

(٢) راجع وصيته لهشام في الكافي للكليني: ج١/كتاب العقل والجهل/ح١٢ .

الافكار والاكتشافات والتقليعات، اذ يتحتّم على العقل غربلة كل وافد من هذه الأشياء لاستثمارها بشكل صحّي في النهضة والبناء...

ومن توجيهاته الأخرى ما قاله (ع):

«التحدّث بنعم الله شكر، وترك ذلك كفر، فاربطوا نِعم ربّكم بالشكر وحصّنوا أموالكم بالزكاة وادفعوا البلاء بالدعاء، فانّ الدعاء جُنّة منجيّة تردّ البلاء وقد أُبرم إبراماً»[1].

فالأموال وسائر النعم، والبلاء وسائر النقم، كلها تتم وفق سنن كونية أودعها الخالق عزّوجلّ في هذا الكون الواسع، من أجل بناء الإنسان وكذلك كشف شخصيته الحقيقية، فإن أحسن التعامل مع هذه السنن بنى نفسه ومجتمعه وتساوت عنده الأحوال. وإن اساء التصرّف دمر نفسه ومجتمعه وصار ريشة في مهبّ تغيّرات الأحوال. والفرق بين الإسلام كعقيدة إلهية وبين الأنظمة والأفكار الوضعية، انّ هذه الرؤى تنظر للنعم بعين الجهد الإنساني الصرف أو التاريخي المحض، وانّها مرتبطة باستثمار الانسان لقوى الطبيعة ومواردها أو انّها نشأت كجزء من بناء فوقي وحتميات تاريخية، كما ترى انّ ما نسمّيه بالنقم هي كوارث وتغيّرات في الطبيعة وسطح الكرة الأرضية ولا دخل لأي قوّة ميتافيزيقية في حدوثها. امّا الإسلام فيرى النعم على أنها فيوضات

---

(١) مهج الدعوات لابن طاووس: ٢١٨، ونقله المجلسي في البحار: ج٤٨/١٥٠/باب مناظراته مع خلفاء الجور حديث٢٠.

بالدرجة الأساس من لدن خبير رؤوف مدبّر سبحانه، وان كانت تجري من بين يدي الإنسان وكدحه. كما يرى النقم بلاءات (وحالات تفرزها الفواعل الطبيعية والأسباب المباشرة، لكن تلك الفواعل والأسباب يسخّرها الله تعالى للمباشرة وتسير تحت نظر القدرة الإلهية الغيبية المتصرّفة بتمام الوجود، ولحكمة ندرك منها البلاء والتذمّر والشك الظاهري، وهي خيرٌ في ذاتها، فقد تستفيد منها كائنات وموجودات أخرى).

وعليه، فالدائن بالنظم والأفكار الوضعية لا يرى أيّ مزيةٍ لأي جهةٍ في كسبه، فلا يشكر ولا ينتظر مباركة سعيه وكدحه، كما أنه لا يدعو أيّ مصدر غيبي للاستعانة به من الكوارث والبلاءات الطبيعية. أما المتدين بالفكر الإسلامي، فيأتي ـ هنا ـ خطاب الإمام الكاظم (ع) ليؤكد على حقيقة موقفه وتعامله مع البلاء والنعمة، فالنعمة تستدام وتستزاد بالشكر الموجّه الى القوّة الممسكة بكل ما في الوجود والمحيطة بكل شيء، والتحدّث بهذه النعم وتخصيص جزء منها لاعانة فقراء المجتمع الإسلامي ومعوزيه(الزكاة)...

وأما البلاء فيتوجّه فيه الى تلك القوّة الغيبية القادرة على التصرّف في الوجود بأسره، ويدعوها للتدخل في منع الكوارث والمآسي والابتلاءات، دون أن تستبطن هذه النظرة إلغاء التدخل البشري واستعداداته واحترازاته.

المهم انّ الإمام يشير الى انّ مصدر النعمة والنقمة هو واحد تنتهي إليه سلسلة الأسباب والمسببات، فمن اراد ـ وفق المنظور الإسلامي ـ أن يجلب لنفسه العزّة والرخاء والنعمة ويتجنّب الشرور والكوارث والإبتلاءات عليه أن يتواصل مع عالم الغيب ليمهّد له الأسباب ويمدّه بالعون، فتثمر حركة الإنسان وتعامله مع الطبيعة. ومن دون ذلك فانّ مصير النعمة الى الزوال ومصير الإنسان الى شقاء...

وهذه المواجهة مع الضدّين والحالين: النعمة والنقمة، كما تثمر على الصعيد الشخصي للإنسان وسعادته تثمر على الصعيد الاجتماعي ورقيّه. فإنّ الشكر والتحدّث بالنعمة والزكاة والدعاء كلها ذات مضامين اجتماعية تصلح الفرد ليمارس سلوكا طيّبا في المجتمع ويعين طبقاته الفقيرة.

ومن توجيهاته أيضا ما قاله لعلي بن يقطين:

«يا علي، كفّارة أعمالكم الإحسان الى إخوانكم، إضمن لي واحدة وأضمن لك ثلاثاً: إضمن لي أن لا تلقى أحداً من أوليائنا إلا قضيت حاجته وأكرمته. وأضمن لك أن لا يظلّك سقف سجن أبداً ولا ينالك حدّ سيف أبداً ولا يدخل الفقر بيتك أبداً. يا عليّ من سرّ مؤمناً بالله بدأ وبالنبيّ ثنّى وبنا ثلّث»[1].

---

(١) بحار الأنوار: ج٤٨/٣٦/مناظراته مع خلفاء الجور، ح١٠، نقلا عن (حقوق المؤمنين).

انّ هـذا الخطـاب وإن كـان ذا مدلـول إجتماعـي إلا أنـه يسـتبطن عمقـا فكريا يسـعى الى أن يرتقـي بوعـي الفـرد واسـتنطاق قدرتـه علـى التفاعل الاجتماعـي. فهذه الرابطة الأفقية بين الإنسان وأخيه الإنسان رابطـة محـورية في الارتقـاء الحضـاري لأيّ مجـتمع حـيث تعمـل علـى تـذويب الأنانيات وتقوية أواصر الأخوة الإسـلامية وتشيع أجواء التكافل ممـا يـؤدي الى تجفـيف منـبع الصـراع والإمتصـاص والتسـخير بـين النـاس. وهـي ذات بعد تـأثيري مـزدوج، يعمـل الأول علـى بنـاء المجتمع الإسـلامي المنشـود على ضوء الأخلاقية الإلهية، فيما يعمل الثاني على تحسين الوضع الإجتماعي والرفاهي للطبقات الفقيرة في المجتمع. ومع هـذا فهـي ـ تفعيل هـذه الـرابطة الأخـوية ـ تعـود بالأثـر الوضـعي علـى نفـس الممـارس لهـذا الخلـق الإجتماعـي (دفـع بـلاء السـجن والقـتل والفقر).

وفلسـفة الإمـام في هـذا الجانـب تؤسـس تـرابطا طوليا في العلاقـة، فتتدرج مـن العمـل الاجتماعي الظاهري الى البعد الفكري والعقائدي، حيث انّ سرور المؤمن بممارسات أخيه الأخلاقية والتكافلية يؤدي الى سـرور اللّه والـنبي (ص) والأئمـة (علـيهم السـلام)، ممـا يشـير الى وحدة تكاملية بـين الفكـر والعقيدة مـن جهـة والحياة والواقع من جهة أخرى وهـذا هـو مـا يسمّيه المعاصرون بالفكـر الحقانـي المتكوّن من العقلانية أي تلـك الـتي تسـلم بالعقـل في جمـيع الأعمـال الفـردية والجماعـية.

ويسمى الفكر بالحقاني لأن العقل فيه متصل بالمصدر والجذر والحقّ ... في مقابل العقلانية والحقانية التقانية التي تركز على إمكانية الفعل ونتائجه فحسب دون ربطه بالمصدر الحقيقي.

إن النتيجة الطبيعية لأفكار دوركهايم وفيبر هي أنّ النظام الاجتماعي المبني على الدين نظام غير عقلاني: في حين أنّ إمكانية حقانية الدين تمكن مباشرة من إمكانية البناء العقلاني للنظام الاجتماعي على أساس الدين[1] .

وهذا الربط مما تتفرد به الرؤية الإسلامية عبر فلسفة أهل البيت (ع) ومناهجهم التطبيقية... وهذا ما يسعى إمامنا الكاظم (ع) الى إشاعته في المجتمع من أجل صلاحه وتحضّره وارتقاء وعيه الإنساني عبر هذه النماذج القليلة من مجموعة كثيرة من توجيهاته...

ثانيا : مناظراته

والإمام الكاظم (ع) بحكم طبيعة وجوده المعصومي ودوره القيادي في الأمّة، مارس جملة من المناظرات والمطارحات والملاحم العلمية، رمت الى ردّ الشاردين الى حياض الدين وردع الخصوم والمعاندين عن التحريف، والتصدّي الى الهجمات الثقافية المغرضة.

كان (ع) يغوص في عمق المسائل وأغوار الفكر، ويستنطق روح

---

(١) د. محمد جواد لاريجاني: الحكومة: دراسات في مشروعيتها وفاعليتها، ص ١٩٠ و ١٩٨.

الحقائق العلمية ويستجلي المقاصد العميقة للعقيدة... بهدي من النصّ القرآني وعبق الحديث النبوي الشريف ورشحات العقل المحكم وقواه الفاعلة والمفكرة، وبتسديد القوّة الإلهية، فكان يخرج من مناظراته جميعها وقد لقن الذهنية البشرية القاصرة كيف يمكن للإنسان أن يبدع والى أيّ مدىً ابداعي يمكن له أن يرتقي.

هذا بعد أن تعتريها الدهشة والذهول والإعجاب بإسلوب جدلي كلامي من هذا النوع...

روى ابن شهرآشوب أنّ الإمام (ع) تجلبب بزي الأعراب، وحجّ مع هارون الرشيد، فلم يعرفه، وحجّ الإمام (ع) قبله. وحينما أبتدره الحرس ليمنعوه من الحج قبل الخليفة أجابهم وأجاب الخليفة بجواب مفحم أخرسهم وجعلهم يدركون علم هذا الإعرابي وفطنته.

وهنا سأل (ع) الرشيد ليكشف مدى عجزه عن كشف أسرار الخلقة مع ما يتطلب منصب مثل الخلافة الإسلامية من أعلمية واطلاع ادقّ، وحينما استنكر هارون الرشيد إمتحان إعرابي لمثله، قال الإمام (ع):

((سمعتُ لمن سمع من رسول الله (ص) يقول: من ولي أقواماً وهب لـــه من العقل كعقولهم، وأنت إمام هذه الأمّة، يجب أن لا تُسأل عن شيء من أمر دينك ومن الفرائض إلا أجبت عنها، فهل عندك لـــه الجواب؟)).

وبعد هذه الحجّة (انّ الخليفة لابدّ أن يكون له عقل كعقول الرعيّة إن لم يتفوّق عليها) بدأ العدّ التنازلي للرشيد وتراجع عن استنكاره، وقال: رحمك الله، لا. فبيّن لي ما قلته[1] وخذ البدرتين! فقال الإمام (ع):

((إنّ الله تعالى لمّا خلق الأرض خلق دبابات الأرض التي من غير فرث ولا دم، خلقها من تراب، وجعل رزقها وعيشها منه، فاذا فارق الجنين أمّه لم تزقّه ولم ترضعه وكان عيشه من التراب)).

أخذ الإمام (ع) البدرتين ليتصدّق بها على فقراء بلده. ولما علم هارون الرشيد أنّ الإعرابي كان موسى بن جعفر (ع) قال: والله لقد كان ينبغي أن تكون هذه الورقة من تلك الشجرة[2].

وهكذا كشف الإمام (ع) عن الخواء العلمي والفراغ الفكري للسلطة وممثلها الأعلى، وانّها عاجزة عن جواب مثل هذه المسألة، فيما يشترط الكفاءة العلمية والإلمام الدقيق بقضايا الدين والكون والمجتمع والمتابعة العلمية لمكونات الطبيعة. فدلل على أن السلطة

---

(١) والسؤال بسيط جدا: هل الخنفساء تزق صغارها أم ترضعهم؟ فالزقّ للطيور والرضاعة للحيوانات بما فيها الإنسان. وتكمن عبقرية الإمام (ع) في اختياره للسؤال البسيط كي يكشف بذلك ضحالة الوعي العلمي والفكري لرأس السلطة القائمة.

(٢) المناقب: ج٤/٣١٤/فصل في علمه.

ليست مؤهّلة للقيادة وأنها متطفلة على منصب غيرها ومستحلة له. كما انّ في هذه المناظرة إشارة الى صاحب المنصب الحقيقي المطلع على أسرار الكون والطبيعة.

فإنْ قال قائل إنّ هذه مسائل جزئية لا تحضر ببال الممثل الأعلى للحكومة، وإنّ همومه أثقل وأكبر من هذه! يبقى جواب الأكفأية التي ترشح غيره للقيادة،تلك الأكفأية المتواجدة في شخص العالم بالدقائق والمتابع لكل المسائل دقيقها وجليلها.

ومناظرة أخرى يذبّ فيها عن حريم الإمامة المقدّس، ويوضح معناها ومضمونها وبُعدها الحقيقي، في الوقت الذي يشوّه مفهومها النفعيون والساسة لهزّ قناعة الجماهير بها ومن ثمّ حجبهم عن التفاعل مع بُعدها الحركي والحياتي والبنائي. قال هارون : خبروني انّكم تقولون انّ جميع المسلمين عبيدنا وجوارينا، وانّكم تقولون: من يكون عليه حق لنا، ولا يوصله إلينا فليس بمسلم.

هكذا يصور المخرّبون مفهوم الإمامة ويقصرون نظرهم كطبيعتهم على النفعية والإنتهازية، يصورون انّ الإمامة تختزل معنى التسلط والإذلال والتعبيد، من خلال إبرازها على أنها ملك دنيوي وهيمنة على مقدرات الأمّة ورقابها. ومن هنا ينبعث خوف السلاطين والحكام، لأنّ الإمامة ـ على اساس هذا التصوير ـ تنافسهم في ملكهم

ومناصبهم. وبما انّ الإنسان يميل بطبعه الى الانعتاق من كل قيد، فسوف يواجه هذا المفهوم المشوّه صداما بالوجدان الشعبي للجماهير المسلمة... وهنا يأتي صوت الإمام (ع) معريا زيف هذه الادعاءات وكاشفا بطلانها في سياق ربط جدلي محكم بين الإمامة وبُعدها الديني والعقائدي، وينزهها عن كونها تنافسا في سلطة أو تكالبا على حُطام:

> «وهذا الذي سمعته غلط من قائله، ودعوى باطلة. ولكن نحن ندّعي أنّ ولاء جميع الخلائق لنا يعني ولاء الدين، وهؤلاء الجهّال يظنّونه ولاء الملك، حملوا دعواهم على ذلك، ونحن ندّعي ذلك لقول النبيّ (ص) يوم غدير خم: من كنت مولاه فعليّ مولاه، وما كان يطلب بذلك إلا ولاء الدين»[1].

وحقيقة كون الإمامة منصبا دينيا بالأساس وانّ الولاء المطلوب من الأمّة هو الولاء الديني ليست حقيقة مبتدعة من الأئمة (ع) حاشاهم من ذلك، وانّما ساقها الإمام (ع) ضمن تسلسل تاريخي ونصّ نبويّ مقدس، ليدلل للأمّة على انّ الإمامة امتداد طبيعي في المنهج الديني المشرّع لمتطلبات الحياة...

انّ الإمامة سلطة روحية أولا وامتداد للنبوّة، وظيفتها اللطف

---

(١) البحار: ج٤٨/١٤٧/باب مناظراته مع خلفاء الجور، ح٢١ .

وانقـاذ الإنسـان مـن حيـرة الجهالة والتيه الفكري والتسخيـر السياسي، وليسـت هـي سلطة واسـتبداد وتسخيركما يصوّرها الأعداء والنفعيون. أمـا الحكومة والسلطة السياسية فهـي وظيفة تابعة ومرتبطة بظروفها الموضوعية. هذه هي ترجمة جواب الإمام (ع).

وسجّلت لـه مناظرة اقتصادية مـع هـارون الرشيد، أكد فيها على أهمية دور الخمس في تشريع الجانب الاقتصادي للمجتمع. فـالخمس هـو فريضة توجب على الإنسان المؤمن أن يخرج خمس ماله المكتسب سواء بالغنيمة أو بأية فائدة وربح مما يفضل عن مؤونة السنة. وهو مخصص لبني هاشم كما انّ الزكاة مخصصة لغيرهم، وبهاتين الفريضتين يتمّ تلافي الطبقية واعانة الطبقة الفقيرة.

وتتأكد أهمية الخمس في زمن الغيبة حيث ينوب الفقيه الجامع للشرائط عن الإمام في صرف نصف الحقّ في مصالح المسلمين. فهي فريضة تعين الطبقة الفقيرة وترفع مستواهم المعاشي كما تبني مصالح المجتمع الإسلامية وتنشيء المشاريع المختلفة.

من هنا نجد دفاعا قويا من الإمام (ع) عن هذه الفريضة حيث روى المؤرّخون كثيرا من الموارد التي ناظر فيها الإمام حول فريضة الخمس ودافع عنها ووضّح أبعادها ومقاصدها، منها ما رواه المجلسي عن «الإستدراك» انّ هارون الرشيد سأل الإمام (ع) قائلا: أتقولون انّ الخمس لكم؟

قال (ع): ((نعم)).

قال هارون: إنّه لكثيرا.

قال (ع): ((انّ الذي أعطاناه علم أنه لنا غير كثير))[1].

فدهشة هارون الرشيد تتأتى من نظرته المادية والسياسية للمال، وتُنبي بعدم استعداده لفقد هذا المصدر المالي الضخم. خصوصا اذا صار بيد مثل الإمام الكاظم (ع) حيث سيشكل خطرا على عرشه من خلال تموين الحركة الإسلامية وتعبئتها ضدّه أو من خلال إبراز النموذج الأمثل في الاقتصاد الإسلامي. لكن الإمام (ع) ربط هذه الكثرة المالية في الحقوق المفروضة بتشريع حياتي إسلامي يدرك عمق المطاليب ويلبّي كافة المتطلبات، وهذا التشريع الصادر عن الله تعالى محيط بحقيقة الأمر ومتطلباته الواقعية، فحينما يرد التشريع على هذه الفريضة مهما بلغت كثرة، كيف لك أنت أيّها المحدود رؤية ورأيا أن تتعجب مستنكرا كثرتها!

فالقضية ليست طمعا وتهالكا على حُطام الدنيا واستزادة من زخرفها ومظاهرها حتى تأخذك الدهشة يا هارون، انّ هذه الدهشة تنبي عن خطأ تفكيرك وسوء تقديرك ، والذَين بعثاك على ما يشبه الإعتراض على التشريع... فإنّ التشريع الذي سنّ هذه الفريضة هو أعلم بحجمها وحدودها وأبعادها، وليس لنا إلا التسليم والتنفيذ.

---

(١) المصدر السابق: ١٥٨، حديث ٣٣ .

وهنالك مناظرات أخرى كلها تصبّ في الدفاع عن العقيدة والمبدأ والفرائض، وتستجلي فلسفاتها الواقعية... نعرض عن ذكرها خشية الإطالة والتكرار... لكن على القارئ أن يقارن بين هذه الأسلوبية الجدلية والآلية التوصيلية وبين ما يعقد في عالمنا اليوم من مناظرات يسمّونها «ساخنة»، والتي لا تكرّس سوى واقع الفرقة والتشرذم والتفكك .. لاعتمادها على التقليد وجاهزية الأفكار والتبشير لآيديولوجيا معينة دون نظر واجتهاد وبحث علمي.

ثالثاً : فتوحاته الفقهية

الإمام الكاظم (ع) الذي منح زمام العلم وأوكلت إليه مهمّة التشريع وفق روح الشريعة ونصوصها ومقاصدها، سجلت له مناظرات في مجال كشف أسرار الأحكام وحِكم التشريع وفلسفة الفقه، ببيانٍ ذات عبقرية ليست مدعاة .. بل مدعومة بالنموذج.

روى له التاريخ فتوحات في هذا الصدد نمت عن عبقريته العلمية وكفاءته التشريعية... منها ما رواه الكليني أنّ المهدي العباسي سأله عن الخمر، هل هي محرّمة في كتاب الله عزّوجلّ، فإنّ الناس يعرفون النهي عنها ولا يعرفون التحريم لها؟

قال الإمام (ع):

«بل هي محرّمة في كتاب الله عزّوجلّ» .

قال المهدي: في أيّ موضع هي محرّمة في كتاب الله عزّوجلّ يا أبا الحسن؟

قال الإمام (ع):

«قول الله عزّوجلّ: ﴿إنّما حرّم ربّي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحق﴾»[1] ...

ثم قال (ع):

«وامّا الإثم فهي الخمرة بعينها»[2].

ادّعى المهدي بسؤاله أنّ هنالك اختلافا في تحريم الخمر، فلابدّ أن يصار الى النص القرآني الذي يحسم الخلاف، وبما أن بعض فقهاء العامّة لم يجدوا نصا قرآنيا صريحا على التحريم، وانّ الموجود في القرآن ﴿رجسٌ من عمل الشيطان فاجتنبوه﴾[3] فقد يُفهم منه النهي التنزيهي (أي الكراهة)، فحاول المهدي إعياء الإمام (ع) واحراجه ظنّا منه أن الإمام كباقي الفقهاء يتعرض لهذه المواقف. وفعلا خاطب الإمام (ع) ذهنية المهدي المحدودة، فاستخرج له آية من القرآن ترتكز على الفهم العرفي السائد في لغة العرب، حيث يطلقون الاثم على

---

(١) الاعراف/٣٣ .

(٢) الكافي: ج٦/كتاب الأشربة/باب تحريم الخمر/حديث١.

(٣) المائدة/٩٠ .

الخمر[1]، فاحبط الإمام (ع) بعلمه ونظرته التشريعية العميقة ما كان يخطط له المهدي في مناظرته هذه.

وقد غاب عن ذهن المهدي أنّ علم الإمام لا ينضب وأنه واقف على دقائق الأحكام ومستنداتها محيط بجزئيات دلائلها. وانّ القرآن لا يستدل به إلا أهله. فلم يسعه إلا أن قال لعلي بن يقطين:

يا عليّ بن يقطين، هذه والله فتوى هاشمية!

إنّ التنقيب في لغة العرب واصطياد ذلك التعارف الذهني في الإطلاق، وتطبيقه في مجال التشريع ينمّ عن عبقرية استنتاجية لم يتوفر عليها فقهاء عصره، الأمر الذي يسجّل مؤشرا من مؤشرات كفاءة وأحقية وحقانية المنهج الفكري للأئمة أهل البيت (عليهم السلام)...

وكان (ع) يجيب على الأسئلة التي ترد إليه من الأمصار والبلاد، ويبيّن لهم ما يتعرضون إليه من مسائل في واقع حياتهم اليومية بأدلةٍ

---

(١) نقل الطبرسي في تفسير ((مجمع البيان)) (ج٣ ـ ٤ / ٥١٥) أشعارا تدلّ على هذا الإطلاق في لغة العرب وتسالمهم العرفي عليه، منها:

نهانا رسول الله أن نقرب الخنى ... وأن نشرب الإثم الذي يوجب الوزرا

وكذلك:

شربتُ الإثم حتى ضلّ عقلي ... كذاك الإثم يذهب بالعقول

تذهل العقول وتقنع الفهوم، موحيا للجميع أنه هو العقل التشريعي المعاصر لهم والقادر على تلبية متطلباتهم في هذا الجانب، وكاشفا عجز تلك المصادر التشريعية التي تفسّر النصوص والأحكام بطرقها الشخصية، سواء كان ذلك بدافع سياسي أو نفعي أو فكري قاصر. الأمر الذي دعا جمهور الأمّة الى الإلتفاف والاتصال بمصدر الإمام واشعاعه العلمي.

وكان علي بن يقطين وكيل الإمام (ع) في هذا الموضوع، يجمع الأسئلة والاستفسارات والاستفتاءات التي كانت تفد عليه من الناس ويرزمها مع الثقاة الى المدينة حيث مقرّ الإمام (ع) فيجيب عليها بأتم جواب وأوضح دليل وأعمق حجّة. مع انّ علي بن يقطين في وزارة النظام العباسي بأمر الإمام (ع) ولمثل هذه الأغراض الدينية...

هذا، وكان الإمام (ع) يحلّ المشكل من المسائل والمتعسّر من الأحكام، والتي يعجز عن حلها فقهاء عصره حتى من كان إماما لمذهب! روي أنّ جارية معصرا لم تطمث، افتضّها زوجها فسال دم كثير، ولما سُئل أبو حنيفة وغيره من الفقهاء عن حكمها، قالوا: هذا شيء قد أشكل والصلاة فريضة واجبة وليمسك عنها زوجها حتى ترى البياض. فإن كان دم الحيض لم تضرّها الصلاة، وإن كان دم العذرة فقد أدّت الفريضة. ففعلت الجارية ذلك.

لكن الراوي ـ خلف بن حماد الكوفي ـ لم يطمأنّ أو يقتنع بهذا

الجواب، وتردد في الحكم الصادر عن هؤلاء، اذ كيف تصلي المرأة اذا كان الدم دم حيض!

ولما حجّ طلب لقاءً سريًا بالإمام (ع) فالتقى به وعرض عليه المسألة والجواب، فقال الإمام (ع):

«إن كان دم الحيض فلتمسك عن الصلاة حتى ترى الطهر وليمسك عنها زوجها. وإن كان من العذرة فلتتق الله ولتتوضأ ولتصلّ وليأتها بعلها إن أحبّ ذلك» .

ولما سأله حماد عن كيفية معرفة نوع الدم، أشار (ع) إليه إشارة واخبره بأن تستظهر المرأة بالقطنة، وعلمه كيفية الاستظهار. هنا بكى حماد ـ لقناعته وتعجّبه من علم الإمام (ع) وحبّه له واعتقاده به ـ وقال: جعلت فداك، من كان يحسن هذا غيرك! قال (ع):

«إني ما أخبرك إلا عن رسول الله (ع) عن جبريل عن الله عزّوجلّ»[1] .

وهذا ينبيك عن مدى خطورة وأهمية دور الإمام (ع) في الحياة التشريعية للمجتمع، اذ عجز عن حلّ هذه المسألة فقهاء العصر، أولئك الذين أسس بعضهم مذاهب مستقلة!

ماذا كان على الأمّة أن تفعل لولا وجود الإمام الكاظم (ع)؟

---

(١) الكافي: ج٣/كتاب الحيض، باب معرفة الدم، حديث١ .

إنها كانت بين طريقين لا ثالث لهما، إما أن يعتمدوا على هكذا استنباطات عاجزة بل خاطئة، وأما أن يعطلوا العمل بالأحكام أو مستجداتها، وكلا الطريقين يقود الى الفوضى وانهيار الفكر والمجتمع والسقوط الحضاري...

لازالت هذه الإشكالية موجودة في الواقع المعاصر للمسلمين حيث يشرّق البعض ويغرّب الآخر، ويعتمد ثالث على منهجة استنباطية قاصرة أو مغلوطة مخالفة لروح التشريع ومقاصد الدين، ولازال العلاج ماثلا بين أيدينا عبر تراث الإمام الكاظم (ع) وباقي الأئمة (عليهم السلام)، وهو ينطق بالإستعداد لمواكبة متطلبات العصر ومتغيرات الواقع. غاية الأمر أن هذا التراث الفقهي الضخم لأهل البيت (عليهم السلام) بحاجة الى صياغة معاصرة وتبويب منهجي حديث ورؤية مقارنة بمقاصد الشريعة ونصوص القرآن والسنّة...

الفصل الثالث

تأصيل الوعي العقائدي

في البدء

لا يخفى على المطلع الخبير بالفكر الإسلامي ما للوعي العقائدي من أثر في حركة الفرد والمجتمع، فالاعتقاد بوجود الله سبحانه ووحدانيته وعدله والنبوّة والإمامة والمعاد وما يتفرّع عن هذه الأصول من مسائل، كلها تؤثر في بناء وعي الإنسان وتدفعه باتجاه الإبداع والإخلاص والعمل، لأن الاعتقاد القلبي بهذه الأصول والفروع ووضوح رؤيتها لدى الإنسان له معطىً عملي يتحرك في الواقع، وهذا ما يسمّى بالنظرة الكونية أو الأساس العقائدي للإسلام، حيث (لا يمكن الفصل بين الأساس العقائدي والمسألة الاجتماعية، لأنها هي التي تصوغ الإنسان داخليا، وتنشيء الظروف المناسبة والملائمة للمجتمع، وتبرر كافة القوانين الفردية والاجتماعية وتمنحها ضمانة التطبيق بشكل طوعي)[1].

فالعقائد هي مادة الحركة الإنسانية والإجتماعية ووقودها، الأمر الذي دعا الأنبياء والمصلحين الى بناء الإنسان عقائديا أولا من خلال

(١) النظرة الكونية أو الأساس العقائدي للإسلام، للسيد محمود الهاشمي، ١٧.

توضيح الرؤية التوحيدية وصفات الخالق عزّوجلّ ، ثم سنّ التشريعات المختلفة التي تطبق تلك الرؤية. ويعتمد نقاء الحركة الإنسانية ونضوج فعلها في الواقع على مدى وضوح الرؤية العقائدية وإشراقة صفات الخالق عزّوجلّ في ذهن الإنسان وعمق وعيه بذلك.

من هنا سعى المغرضون الى تشويه الوعي العقائدي وتشويش الذهنية البشرية بعقائد امّا مختلقة وامّا محرّفة وإما خاطئة، لشلّ حركة الإنسان بتزييف وقوده ومادّته المحرّكة له، هذا فيما يمارس البعض بعقول قاصرة اجتهادات تصبّ في هذا الاتجاه التخريبي دون أن تعي محورية دور العقائد في حياة الإنسان وحركته.

الاعتقاد يجمّع قوى البشر ويوجّه قدراتهم الى جهة واحدة عادلة وقادرة على كل شيء ومدبّرة لما في الوجود، فيثمر العطاء الإنساني رفضا لكل ولاء وضعي وسلطة مؤقتة وسلوك منحرف. فكم حدّثنا القرآن عن انتصارات باهرة حققها المسلمون وهم فئة قليلة، بفضل شعورهم الجماعي تجاه عقيدة واحدة وربّ واحد... وكم حدّثنا التاريخ عن انتصار تأريخي حققه الموحدون ضد قوى الشر والاستبداد والكفر...

ثم لا يكفي وجود عقيدة معينة لأيّ أمّة أو جماعة، بل لابدّ من توفر عنصرين أساسيين:

الأول : هو أن تكون العقيدة ربّانية ناشئة من مصدر مطلع على سرائر الخلقة وأسرار الوجود، وكل العقائد والمباديء الوضعية أثبتت فشلها في إدارة مجتمعاتها ولازالت البشرية تعاني من كوارثها وآثارها السلبية.

والثاني : هو توفر الوعي في التعامل مع العقيدة. وهذا ما يشكل صمام الأمان للعقيدة ويحصّنها من التزوير والتشويه والتحريف والاستدلال المغلوط والخوض فيما لا طائل منه. وهو ما يتكفل ببناء حضارة قوّية متماسكة تمانع الفشل والانهيار...

الإمام والدفاع المستميت عن العقيدة

لهذا نرى الإمام الكاظم (ع) قد كرّس كل وجوده للذبّ عن العقيدة الصحيحة حتى ألقى بنفسه الشريفة في محرابها، إدراكا منه (ع) لمغزاها العميق وأبعادها الإنسانية. فتارة يبثّ الأفكار العقائدية الخلاقة، وتارة يناظر وينافح الخصوم والفرق الضالة، وثالثة يقارع الطغاة ويرفض الولاء لهم بكافة أشكاله...

قرأتَ فيما سبق تربيته لهشام الفيلسوف الإسلامي المتخصص بهذا المجال، كما قرأت كشفه لخطأ صفوان بمجرّد أن أكرى جماله للظلمة. وهنالك مشاريع ونشاطات سجّلها المؤرّخون للإمام (ع) تنمّ عن وعيه التام بضرورة التحرّك في هذا الاتجاه، سنأتي على ذكرها وتحليلها تباعا إن شاء الله.

ومرّ عليك كيف أنه آثر السجن والاعتقال والأغلال على الرضوخ لعقيدة السلطة المنحرفة.

هذا كله خطاب ديني إصلاحي يتوخّى الإمام (ع) سيرورته في وعي الأجيال القادمة، لتعي عقائدها بسلامة وفطرةونقاء.

هذا فيما اعترف علماء الاجتماع أنّه (نظرا لاعتماد علم الاجتماع على المنهج العلمي الذي يسوّي بين الظواهر الاجتماعية والظواهر الطبيعية، مع خطأ التسوية بينهما، فقد كثرت الأخطاء في البحوث الاجتماعية، خصوصا عند تناولها للدين)، (فعلماء الاجتماع الذين يتمسكون بالمنهج العلمي .. يؤمنون بعالم الشهادة فقط، وهو العالم الذي تدرك الحواس جزئياته في الحياة الأرضية وما يحيط بها من كون مادّي، ولا شيء قبل هذا الكون المادي المشاهد ولا شيء بعده، فلا يعالج ما وراء الطبيعة ولا يتعامل مع عالم الغيب، كما يرفض الوحي السماوي بصورة مطلقة، ويهدم حقيقة النبوات والمعجزات ولا يؤمن بما هو محسوس)[1].

أمّا الرؤية الإسلامية للمجتمع وعقائده وقيمه، فهذا ما تكشفه لنا تحركات الإمام الكاظم (ع) ومشاريعه...

واليك بعض الإضاءات في هذا الجانب:

---

(١) منصور المطيري: الصياغة الإسلامية لعلم الاجتماع (الدواعي والأمكان)، ص ٦١ ـ ٦٢.

التوحيد

التوحيد هو تنزيه الله سبحانه عن كل ما لا يليق بساحته المقدسة، نفي كل شريك عنه وكلّ ثان له، الشريك بكافة أشكاله سواءً كان في ذاته أو صفاته، وكان المسلمون يعتقدون بذلك اعتقادا بسيطا فطريا بلا تكلف لدليل أو التماس لحجّة فلسفية، حتى نشطت الحركة الكلامية والآراء الفلسفية، فبدأت الحاجة الى الدليل حينما ناقشوا في ذاته وصفاته وأفعاله وأفعال العباد، فبدأ الانحراف أيضا حينما ظهر التجسيم والجبر والتفويض والرؤية وكلام الله الى غير ذلك من الآراء المستوحاة من نصوص قرآنية ونبوية بطريقة خاطئة، تابعة لنتاج عقلي بشري محدود الرؤية.

وقد دافع أئمة أهل البيت (ع) عن الذات الإلهية المقدسة وتنزيهها عن كل نقص واثبات كل كمال وجمال لها، بالأدلة المحكمة الرصينة والحجج القوية المفحمة... حتى جاء دور إمامنا الكاظم (ع) وتسلم مهمّة التصدّي والدفاع والتبيين، فوقف يهزّ جموع المتكلمين مصرّحا:

((أنّ الله لا إله إلا هو، كان حيّاً بلا كيف ولا أين ، ولا كان في شيء، ولا كان على شيء، ولا ابتدع لمكانه مكاناً، ولا قويَ بعدما كوّن الأشياء، ولا يشبهه شيء يُكوّن، ولا كان خِلوةً من القدرة على المُلك قبل إنشائه، ولا يكون خِلوةً من

القدرة بعد ذهابه، كان عزّ وجلّ إلهاً حيّاً بلا حياة حادثة...))[1].

فقد يدرك الإنسان بعقله ضرورة اثبات الحياة لله عزّوجلّ باعتبارها صفة ثبوتية لا يمكن سلبها عنه، وباعتبار الآثار الحِكمية التي يراها في عالم الوجود، لكن لا يدري هل هي كحياتنا التي نفهمها ونتصورها أم لا ؟

يجيب الإمام (ع) بجواب ذكي عميق جدا وبعبارة سهلة مألوفة جدا، اذ انّ الذي يُسأل عن كيفية حياته بحيث يطلب معرفة الإطار الذي يستوعب حياته هو الشيء المحدود المادي المتجسّد في عالم الخارج، امّا بالنسبة للخالق عزّوجلّ فهو (حيّ بلا كيف) فكيف يسأل عن الكيف! لأنّ الذي ندركه بعقولنا هو حياته سبحانه فحسب، وما تجاوز ذلك فالعقل غير قادر على التجوّل فيه. وهكذا بالنسبة الى سؤال (الأين) لأنه يستبطن إشارة وتجسيدا وتحديدا يتنافى مع الصفات الإلهية المقدّسة.

فالعقل يدرك ضرورة تنزيه الخالق عزّوجلّ عن كل ما هو متعارف عند البشر من الحياة والتحيّز (من الحيز أي المكان) والتقوّي (أي زيادة القوّة) والقدرة الحاصلة وغير ذلك لأنّ هذه الأشياء والحالات بالمفهوم العرفي تلحق النقص به سبحانه وهو منزه عنه.

---

(١) التوحيد للصدوق: ١٤١ / باب صفات الذات وصفات الأفعال، ح٦ .

ثم كم فرق بين قول الإمام (ع) «حيّاً بلا كيف ولا أين» وبين قول الحشوية وأهل الحديث أنه سبحانه (جسم بلا كيف)!، وقد أخذوا هذه الجسمية من مضمون بعض الأحاديث المزوّرة أو المدسوسة، فالإمام (ع) يثبت له الحياة وينزهه سبحانه عن مفهومها البشري المحدود ويجعله سبحانه فوق السؤال ذاته، فيما تثبت له الحشوية الجسمية صراحة محاولين ترقيع المسألة بتنزيهه عن مفهوم الجسمية المتعارف. والأخير تلاعب باللفظ اذ لايوجد جسم إلا ويرافقه التحديد والتحيّز والنقص والمكان، فيما لا ترافق هذه الأشياء مفهوم الحياة، بمعنى أنه يمكن تصوّر مفهوم الحياة بلا هذه الأشياء ولا يمكن تصوّر مفهوم الجسمية بدونها...

اطروحة الإمام (ع) في كلام الله

طرحت مسألة كلام الله: هل هو مخلوق أو غير مخلوق، وهي فكرة تسربت من الفلسفات الوضعية والديانات المحرّفة وروّج لها سلاطين العصر آنذاك، ولكلٍ غرضه حيث أدّى الخوض فيها الى إراقة الدماء واستباحة النفوس، فيما تنفس المنحرفون الصعداء وثبّت سلاطين الجور عروشهم في هذه الفترة. وقد دخل في هذه المعركة الدامية بعض أئمة المذاهب الإسلامية وعيون محدّثيها حتى أن التأريخ سجّل لأحمد بن حنبل (بطولة) في هذا المجال، حيث رسف

بالقيود وعذّب عذابا شديدا لعدم اعترافه بأنّ كلام الله مخلوق. وسمّيت تلك السنين بـ(محنة القرآن)[1] .

فكان موقف الإمام (ع) من هذه الإثارة التي لا يقصد بها سوى الفرقة والتضليل ، هو تأطير المسألة بإطارها القرآني الذي يثبت أن الكلام هو كلام الله فحسب، دون أن يرى ضرورة الخوض في كيفية صدور هذا الكلام من الله، والجارحة التي حاول البعض إثباتها له ـ تنزّه عن ذلك ـ وهذا ما يعني الإنسان المسلم. فليس من شأنه أن يخوض فيما لا يعنيه ولا طائل من ورائه...

حدّث سليمان بن جعفر الجعفري، قال: قلت لأبي الحسن موسى بن جعفر (ع): يا ابن رسول الله ما تقول في القرآن؟ فقد اختلف فيه من قبلنا، فقال قومٌ أنه مخلوق، وقال قوم أنه غير مخلوق. فقال (ع):

«أما أني لا أقول في ذلك ما يقولون، ولكنّي اقول: انّه كلام الله»[2] .

فما هي فائدة معرفة ماهية القرآن؟ وما هو أثر تلك المعرفة على وعي الإنسان وحركته وبرنامجه الحياتي وحتى الفكري؟ لاسيما وانّ

---

(١) راجع تأريخ اليعقوبي: ج٢/٤٦٨ ـ ٤٨٢، وتأريخ الطبري: ج٧/١٩٥ ـ ٢٠٦. لمعرفة خلفيات المسالة وحوادثها...

(٢) التوحيد للصدوق: ٢٢٤/باب القرآن ما هو؟ الحديث٥ .

المسألة لم يكلف بها الإنسان، ولا هي ذات أثر معرفي واضح. فلماذا يصرف وقته الثمين وطاقته التفكيرية بمسألة من هذا النوع؟!

وقد ربط كثير من أهل العدل والتوحيد مصيرهم بالدولة وسياساتها، وانسياقهم معها في حملتها التي ما تزال غامضة، من أجل حمل الناس بالقوّة والعنف، على القول «بخلق القرآن»، وقد أدّى ذلك تصفيهم سياسيا وتهميشهم اجتماعيا وفكريا[1].

هذا ما جعل النصارى يهوون حضاريا حيث قالوا بأن المسيح (ع) كلمة الله وهو غير مخلوق، فجرّ عليهم هذا التساؤل ونتيجته تساؤلات أخرى أدّت الى الإنحراف والضياع.

نعم ما هو مثمر من فنّ الكلام والجدل وذو بُعدٍ تأثيري فعّال في حياة الإنسان وفكره، فيمكن الخوض فيه بدليل قرآني وهدي نبوي وعقل استدلالي محكم، بل من الضروري تطوير علم الكلام، لكن من خلال حركة العقل في النصوص والقرآن أي في المنطقة التي يمكن له التجول فيها والإبداع على ضوئها... أمّا الأشياء التي لا يمكن للعقل أن يفهمها فمهمّته الأساسية هي التوقف. وقد عاد المفكرون اليوم ليسمّوا ما يفسره العقل من الأشياء التي لا يفهمها بظاهرة «سلبية العقل» إذ يقول أحد الباحثين:

---

(١) محمد عابد الجابري، تكوين العقل العربي، سلسلة نقد العقل العربي (١)، ص ١٥١.

فإنّه تبقى الضرورة ماسّة لإقامة دستور عام يتناول الجانب السلبي للعقل ولمقرراته الخاطئة أو أن ينظر إليه في الأقل، على ضوء نظرية جديدة تتطلبها ظاهرة ((سلبية العقل)) ... فليس قصارى العقل أن يمتنع عن تفسير الأشياء التي لا يفهمها، وإنّما هو يفسّرها تفسيرات خاطئة[1].

وفي جواب الإمام (ع) إشارة وايحاء الى تجنّب هذه الأفكار والخوض في تفاصيلها: **((أما اني لا أقول في ذلك ما يقولون))** بمعنى أن طريقتهم ومنهجيتهم في الخوض والاستدلال غير صحيحة ولا مثمرة فضلا عن قدرتها التدميرية للفرد والمجتمع. وهو ما يؤكد تطور الذهنية التفكيرية للأئمة (عليهم السلام) قبل ظهور هذه النظريات وتعقد هذه العلوم.

فعلم الكلام ليس أن يكون الإنسان (حقيبة معلومات) فحسب، قادرا على الخوض في أيّ موضوع وحاضر الجواب في أي وقت، بل هو وسيلة لمعرفة الخالق وصفاته الجمالية والجلالية ليثبت له كل كمال ويتجافى به عن كل نقص ، ليؤثر ذلك في وعي الإنسان، ومن ثمّ في حركته وكدحه بإتجاه العالم الأخروي العظيم...

---

(١) مسعود محمد: الإنسان وما حوله: ج٢ / ص ٤، مصدر سابق.

تنزيه الله عن الشبيه

جمد المحدّثون والحشوية على ظواهر الأخبار حتى المدسوسة منها، فكان مؤدى ذلك الأخذ بمضامينها حتى لو خالفت بديهة العقل وقطعي السنّة الصحيحة ونصّ القرآن، وكانت النتيجة هو التجسيم والتشبيه ورؤية الله سبحانه، الى حدّ اثبات انّ لله جارحة يتحرك بها وينزل الى السماء الدنيا ويستلقي ويضحك!!!، وغير ذلك من الإنحرافات التي يقطع العقل ببطلانها فضلا عن النصوص القرآنية والحديثية الكثيرة، ولسنا بصدد عرض الأفكار ومناقشتها، بل بصدد الإشارة لمعرفة خلفية تحرّك الإمام الكاظم (ع) في مجال تصحيح الاعتقاد وتقويم الإنحراف.

قال الدكتور أميل توما: فالأشعري ومدرسته ألفا ردّة فعل فكرية أوقفت الاجتهاد والتحليل وتقيّدت بالنصوص، وكان انتصارها لا بسبب قدرتها على التحدّي ومواجهة القضايا، بل بتأييد النظام القائم لها ... وكانت سيادة الأشعرية أو المنطلقات السنّية ضربة كبرى للفكر العربي الإسلامي النيّر المتحرر[1] ..

وكان تحرك الإمام (ع) في هذا الجو العقائدي الموبوء الذي بدأ يتشكل ...

---

(١) الحركات الاجتماعية في الإسلام: ص ١٠١.

جاء عن يعقوب بن جعفر الجعفري أن قوما زعموا أن الله تبارك وتعالى ينزل الى السماء الدنيا. فقال (ع):

«إن الله لا ينزل ولا يحتاج أن ينزل. لم يبعد منه بعيد، ولم يقرب منه قريب، ويحتاج إليه كل شيء، وهو ذو الطول لا إله إلا هو العزيز الحكيم. أما قول الواصفين لــه بأنه ينزل تبارك وتعالى عن ذلك علواً كبيراً، فانما يقول ذلك من ينسب الى نقص أو زيادة، وكل متحرّك يحتاج الى من يحرّكه أو يتحرك به. فمن ظنّ بالله الظنون فقد هلك، فاحذروا في صفاته من أن تقفوا لــه على حدّ تحدّونه بنقص أو زيادة أو تحريك أو تحرّك أو زوال أو استنزال أو نهوض أو قعود، فانّ الله سبحانه عزّوجلّ عن صفة الواصفين ونعت الناعتين وتوهّم المتوهمين»[1].

وهكذا يستدل الإمام (ع) على غنى الله سبحانه عن مثل هذه الحركات، انّ هذه الحركات تحتاج الى وسيلة للتحرّك أو التحريك، والاحتياج آية الإمكان ودليل العوز، وهو مما ينزّه عنه واجب الوجود المطلق عن كل فقر وحاجة والغنيّ عمّا سواه، فكيف نؤمن بإله محتاج الى حركة ووسائل !

انّ هذه المغالطة كشف عنها الإمام (ع) ببرهانه اللطيف ودليله

---

(١) سيرة الأئمة الاثني عشر للحسني: ج٢/٣١٦/من مناظراته.

العقلي القاطع وأبان عن المصدر المشبوه الذي يقف وراءها؛ إنهم أناس خارجون عن الدين وطبيعته المعرفية في مجال التوحيد، تلك المنظومة التي يدرك المحيط والخبير بها أنها تسعى لمنح كل صفة كمال للخالق عزّوجلّ وتسلب عنه كل صفة نقص.

انّ هذه الخرافات التي يؤمن بها بعض الفرق لم تصدر عن وعي كامل بصفات الخالق المعبود الذي تتجه إليه الإبداعات البشرية في الفكر والحياة، انّها صادرة عن عقل قاصر «**فانّما يقول ذلك من ينسبه الى نقص أو زيادة**» وكلاهما خطرٌ وانحراف، يحذّر منهما الإمام (ع) واصفا إياهما بـ(المتوهّمين).

ذلك لتبقى ساحة الخالق عزّوجلّ مصونة عن إلحاق النقص ومتوفرة على كل كمال، الأمر الذي يدعو الإنسان المؤمن بالله الى محاولة الإقتداء والامتثال والتمثّل لذلك الكمال في حركته وفعله وارادته، والتخلق بأخلاق عالم الغيب...

بلورة مفهوم الإمامة

في محاولة خائبة لطمس معالم أهل بيت النبوّة (ع) وحجز الأمّة الإسلامية عن الإلتفات حولها والسير على ضوء هديها في الحياة، سعى الحكام لتشويه صورة الإمامة وتغييب رمزها عن الذهنية الجماهيرية، وبقوّة النار والحديد... وقد ذبّ عنها الإمام (ع) بنفسه وبالمتخصّص الذي أنشأه (هشام بن الحكم).

لذا قال بعض الباحثين العرب: بالفعل بدأ الشيعة (الكلام) في الإمامة قبل أهل السنّة، مما سيجعل موقف هؤلاء موقف دفاع. وبما أنّ دولة الإسلام كانت في ذلك الوقت ـ منتصف القرن الثاني ـ دولة أهل السنّة لا دولة الشيعة. وبما أن الشيعة كانوا قد انصرفوا آنئذٍ مع جعفر الصادق عن المعارضة العنيفة إلى المهادنة التكتيكية، فلقد اتخذوا من الطعن في «سياسة الماضي» قنطرة للطعن في سياسة الحاضر[1] ...

وإدامة لهذا التكتيك العلمي والسياسي وبتلك الروح التجديدية الناقدة لسياسة الحاضر إزاء التعامل مع مفهوم الإمامة ... مارس الإمام الكاظم (ع) مشاريعه التي بلورت المفهوم وعمق مداليله ..

روى الصدوق أن الإمام (ع) وقف في قصر هارون الرشيد، فدار بينهما كلام في هذا الشأن بعد أن أحرز الإمام (ع) الأمان من الرشيد (انظر مدى الإسلوب الإرهابي والقمعي المتّبع من قبل السلطة الحاكمة ضدّ هذه الافكار الى حدّ أخذ الأمان قبل المناظرة!). وذكر في الرواية الطويلة أن الإمام (ع) كشف عن أحقية أهل البيت (ع) وشموخ مقامهم...

ـ الرشيد: لم جوزتم للعامّة والخاصّة أن ينسبوكم الى رسول الله

---

(١) محمد عابد الجابري: تكوين العقل العربي، ص ١٠٨، مصدر سابق.

(ع) ويقولون لكم، يا بني رسول الله، وأنتم بنو علي، وانّما ينسب المرء الى أبيه، وفاطمة انّما هي وعاء، والنبيّ جدكم من قبل أمّكم؟

- الإمام (ع):

((يا أميرالمؤمنين، لو أنّ النبيّ (ع) نشر فخطب إليك كريمتك، هل كنت تجيبه؟)).

- الرشيد: سبحان الله! ولِمَ لا أجيبه؟ بل افتخر على العرب والعجم وقريش بذلك.

- الإمام (ع): ((ولكنه (ع) لا يخطب إليّ ولا أزوّجه)).

- الرشيد: ولِمَ؟

- الإمام (ع): ((لأنه ولدني ولم يلدك)).

فأذعن الرشيد، قائلا: أحسنت يا موسى![1].

لقد تناسى الرشيد - كما تناسى غيره - هذا الكم الهائل من الروايات التي تتحدث عن اثني عشر إماما بصفاتهم وأسمائهم، من ذرية فاطمة (ع)، كما تناسى - ولا أحسب نفسي اجرّده عن القصدية - المكانة الرفيعة والمقدسة للزهراء (ع) عند النبي (ع) والأمّة الإسلامية فجعلها مجرّد (وعاء) - تنزّهت عن هذه الصفة وتعالت على هذا المحلّ

---

(١) عيون أخبار الرضا(ع) للصدوق: ج١/٨١/باب ٧ حديث٩. والاحتجاج للطبرسي: ج٢/ ٣٩١. ونقل عنهما المجلسي في البحار: ج٤٨/١٢٧ - ١٢٩/باب مناظراته مع خلفاء الجور.

ـ وركن الى عقيدة جاهلية وفكرة رجعية تنظر الى المرأة هذه النظرة متجاوزا أخلاقية الشريعة الإسلامية وأفكارها المتحضّرة.

فكان جواب الإمام (ع) خطابا مفحما ركز فيه على أقربيته من الرسول (ع) وانّهم بيت نبوّة وانّ الانتساب إليه من هذه الجهة. ولا يريد الإمام (ع) أن ينتسب للتفاخر المحض ، بل للتدليل على النسبة والأقربية الى مهبط الوحي والنبوّة بما يحوي من قدسية ومعارف وامتداد طبيعي لمنهج الأنبياء. فيما كان نظر الرشيد منصبّا على مفاخرة قبَلية بالنسبة الى الشخص والإسم.

ومما يؤيد إرتكاز هكذافهم عند الرشيد، هو الفقرة التالية التي يكشف فيها عن قصده ووجهة نظره...

ـ الرشيد: كيف قلتم، إنا ذرّية النبي (ع) والنبيّ لم يعقب؟ وانّما العقب للذكر لا للانثى، وأنتم ولد الإبنة؟!

ـ الإمام (ع):

((بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ومن ذرّيته داود وسليمان وأيّوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزي المحسنين، وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس كلّ من الصالحين﴾[1] ، من أبو عيسى يا أمير المؤمنين؟)).

---

(١) الأنعام/٨٤ ـ ٨٥ .

ـ الرشيد: ليس له أب.

ـ الإمام (ع):

«إنما ألحقناه بذراري الأنبياء (ع) من طريق مريم (ع)،

كذلك ألحقنا بذراري النبي (ع) من قبل أمّنا فاطمة (ع)»[1].

فالمسألة في نظر الإمام (ع) مسألة انتماء رسالي وحضاري مقدّس، لخط موغل في التأريخ والمواجهة والعلم والقداسة، يجتبي سبحانه من يشاء لهذا المنصب الإلهي، وينمي إليه من يشاء، بعلمه المطلع على كل شيء خفي وظاهر، وقدرته المحيطة بكل شيء، وليست هي مسألة انتماء نسبي شخصي وملك ووراثة كما يفهمها الرشيد.

وقد كان الإمام (ع) منتبها الى ما هو المركوز في ذهنية الرشيد ومركزا في خطابه على تأسيس اتجاه معاكس لهذا الفهم، اذ يجعل الإمام (ع) ـ في ذيل الرواية السابقة ـ الافتخار الحقيقي الذي يتفرّد به الأئمة (عليهم السلام) انّما هو بالإنتساب الى عالم الغيب المقدّس «إنا معشر بني عمّك، نفتخر بقول جبريل انّه منّا».

ومن لطيف الاستدلال أن عملية التفاخر الدنيوي الذي يقصده الرشيد يكون بانتساب المفتخِر الى صاحب المجد والسؤدد غالبا، فيما يجعل الإمام (ع) تمنّي الموجودات العليا (الملائكة) الانتساب لهم (ع)

---

(١) المصدر السابق: عيون أخبار الرضا(ع) والاحتجاج والبحار.

هو الافتخار الحقيقي، وهذا يحفز الأمّة جميعها للانتماء والانتساب لهم في الفكر والعمل...

وفي ذلك توضيح أعمق للإمامة وتوسعة لمفهومها ابتكره الإمام (ع) بعلمه الذي لا ينقطع ولا ينضب ونظرته الاصلاحية العميقة، يؤدي لا الى اصلاح الفرد والمجتمع فحسب، بل لقطع كل صلة ووشيجة وانتماء للنظام السياسي المنحرف... وهذا خطاب معاصر لحياتنا نحن أيضا حيث يتحتم علينا إلغاء كل الولاءات المصطنعة وابراز ولائنا لمنهج أهل البيت (ع) في العقيدة والسلوك والفكر والممارسة...

ولكن يبقى سؤال: كيف هو المميز لإبداع أحدنا عن الآخر، إذْ يفهم من ذلك رهط كبير من الأمّة أن الانتماء هو بالتشرّق بحبّهم والولاء لهم (عليهم السلام) أو حفظ أحاديثهم في أحسن الأحوال أو الهجوم على الآخرين وغير ذلك من مظاهر الأزمة الراهنة. فيما يمكن الانتساب الحقيقي لهم في الانتماء الفكري الأصيل لمنهجهم في التعامل مع مفردات العقيدة والفكر والواقع والمجتمع وبطريقة حيّة تجسّد المفاهيم وتحرّك المبادئ وتجدد الأفكار، بما يمسّ الواقع بالصميم ... الانتماء الحقيقي أن نبدع ونجدّد ونحاور ونبني ونوحّد ... لنكون مرآة تعكس فكرهم العظيم في واقعنا المعاصر...

وهكذا ظلّ الإمام (ع) طيلة حياته الشريفة يؤكد على ضرورة التزام هذا المنهج القويم ويدعو الى اعتناق الإمامة كعقيدة لها هذا

البُعد الواسع من حياة الإنسان، حيث سنقرأ في وصيته الى علي بن سويد السائي:

«فاستمسك بعروة الدين آل محمد، والعروة الوثقى، الوصي بعد الوصي، والمسالمة لهم والرضا بما قالوا...»،

وجعلها أولى وصاياه لأهميتها ودورها في كشف عناصر الفهم والرقي، فالتمسك بالإمام المعصوم ومفهوم الإمامة يعني التمسك بالحقيقة المطلقة والخلاقة في حين تتقاطع الرؤى وتُغشّ الحقائق وتتقطع كل الأسباب الأخرى...

لكنّ التمسّك والمسالمة والرضا بما قالوا، لا يساوق أبدا الجمود والتحجّر وإلغاء العقل أو العزلة عن المناهج الفكرية الحديثة وأفكار العصر .. إنّ الآلية التي يعبّر بها الإنسان عن هذه المبادئ الولائية متروكة لكل ممارس، يمارسها بما يتلاءم مع خصوصيات عصره وتعقيدات أشكال حياته وخطابات عالمه المعاصر له ... ولا يوجد أيّ نصّ يحرّم سلوك الآلية المعاصرة.

من هنا ندرك وهم المتعصبين في إصدار أحكامهم التكفيرية والتشكيكية ضد كل من يجترح الخطاب الحديث للتعبير عن ولائه لأهل البيت (عليهم السلام) ...

القضاء والقدر من المسائل الدقيقة في فنّ الكلام، صار البحث فيها في عصر من العصور مزلة لأقدام كبار المتكلمين ومشاهير الفلاسفة، والسبب في ذلك أنهم راحوا يبحثون في زوايا المسألة بلا أيّ داع، والذين بحثوا في مساحتها الصحيحة، لم يلتمسوا إليها منهج الأئمة (ع)، بل اعتمدوا على آراء الفلاسفة والمناطقة وظواهر الآيات والأخبار التي لا تؤدي الى النتائج التي انتهوا إليها، فراح البعض يبرر به سلوك الساسة والمستبدّين وانحرافاتهم بحجّة أن النظام السياسي القائم ـ وإن أعمل النار والحديد وصادر الحقوق والحريّات ـ هو قضاء وقدر من الله سبحانه، ولا نملك حقّ دفعه أو الاعتراض عليه. فتعهّدها الحكام ـــ أي هذه العقيدة ـــ بالتربية وتهيئة الأجواء والارضيات لنشوئها. وفي مقابل ذلك ـ ولصيانة حرية الإنسان وارادته في فعله ـ قالوا بفكرة أن الإنسان هو المسؤول الحرّ المباشر عن فعله وانّ الله فوّضه بذلك بعد أن خلقه.

واستدلّ كلٌ على ما ذهب إليه بأدلة قاصرة عن المطلوب، وسمّيت الطائفة الأولى بالمجبّرة والثانية بالمفوّضة.

وفي الحقيقة انّ كلا الأمرين خطير للغاية، فالمجبّرة تلحق الظلم بالله سبحانه والنقص وسلب قدرة الإنسان عن الفعل، فيما تؤدي

فكرة المفوّضة الى تحديد قدرة الله وتحجيم إحاطته بما في الوجود من أفعال!!

وجاءت الأشاعرة بنظرية الكسب ومعناه أن يقوم سبحانه بإيجاد الفعل مقارنا لإرادة العبد وقدرته دون أن يكون لقدرة العبد أيّ تأثير، هروبا من الجبر والتفويض، وهو ليس كذلك.

ولسنا بصدد التعرّض لتفاصيل هذه الأقوال ومناقشتها، ومن يريد مراجعة المسألة فليطالعها في مبحثي القضاء والقدر وأفعال العباد من المباحث الكلامية...

المهمّ أن أئمة أهل البيت (ع) جاءوا بنظرية الأمر بين الأمرين، وهي تتلخص بأنّ أفعال العباد صادرة عنهم صدورا مباشرا وهم مسؤولون عنها وأحرار في اختيارها، لكن كل ذلك يتم بقضاء وقدر من الله تعالى واحاطة بها عن طريق إمداد العبد بالقوة العقلية والجسمية التي تمكنه من التحرّك والفعل، فقضاء الله وقدره تعلقا بأن يأتي العبد بفعله عن طريق مباديء الفعل التي منها اختياره، وهو سبحانه قادر على التدخل في منعه متى ما اقتضت المصلحة ذلك، فالفعل ينسب الى العبد لأنه فاعله المباشر الحرّ المختار المريد، وهو ينسب الى الله تعالى لأنه المهيمن على الفعل وصاحبه والمانح له القدرة والقوة على الفعل. وهذا ما يحفظ لله سبحانه علمه وقدرته كما

يحفظ للعبد حريته واختياره. وهو كذلك ما ينزّه الله سبحانه عن الظلم ويتجافى بالإنسان عن الجبر...

يندّد الإمام الكاظم (ع) أولا بالمنكرين للقضاء والقدر:

«لا يكون شيء في السماوات والأرض إلا بسبعة، بقضاء وقدر وارادة ومشيئة وكتاب وأجل وإذن. فمن قال غير هذا فقد كذب على الله أو ردّ على الله عزّوجلّ»[1].

لأن المنكر للقضاء والقدر يحجّم علم الله وقدرته، ويناقض نصّ القرآن **﴿يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم﴾**[2].

وكذلك **﴿وما تشاؤون إلا أن يشاء الله﴾**[3].

وكذلك **﴿انّا كل شيء خلقناه بقدر﴾**[4].

و**﴿اذا قضى أمراً فإنّما يقول لــه كن فيكون﴾**[5].

ولهذا يقول الإمام (ع):

«كذب على الله أو ردّ على الله»

---

(١) البحار: ج٥/٨٨/باب القضاء والقدر/ح٧.

(٢) البقرة / ٢٥٥ .

(٣) الإنسان /٣٠ .

(٤) القمر/٤٩ .

(٥) البقرة/١١٧.

في إشارة الى حتمية المنهجيةالاستدلالية المرتكزة على المصدر الغيبي وهو كلام الله سبحانه لتتلاءم النتائج مع الرؤية العقائدية الدينية ومقاصدها.

ويؤكد (ع) في حديث آخر على احاطة علمه تعالى بكل شيء بما فيها أفعال الإنسان وغيره، وشموليته الممتدة الى كل ما يجري في الوجود قبل وجوده وتحققه على يد الفواعل الطبيعية في العالم الخارجي، فقد سئل عن معنى أنه تعالى استوى على العرش، قال (ع):

«استولى على ما دقّ وجلّ»[1].

وهذا الاستيلاء على الأشياء دقيقها وجليلها يستدعي علم الله سبحانه بكل ما يقع في الوجود من أفعال وأشياء قبل وقوعها وأثناء وقوعها وبعد وقوعها، وهو معنى القضاء والقدر، فانّ القضاء معناه (ضرورة وجود الشيء عند تحقق علله وأسبابه الطبيعية، وعلم الله سبحانه بذلك قبل وقوعه)، والقدر معناه (تحديد مقدار الشيء وخصوصياته التي تثبت له عند وجوده، وعلم الله سبحانه بالشيء وخصوصياته قبل وقوعه). لكن هل يعني هذا سلب اختيار العبد وارادته وقدرته؟ كلا، فانّ القضاء والقدر تعلقا بأن يصدر الفعل عن مجموعة من المبادىء ومنها اختيار الإنسان. فالعبد فاعل بالمباشرة

---

(١) الاحتجاج للطبرسي: ٢/٣٨٦/باب احتجاج أبي ابراهيم(ع) في أشياء...

والله تعالى فاعل بالتسبيب أي بتهيئة الظروف الموضوعية والتكوينية التي اذا تمت تمكن العبد من التحرّك والفعل بالمباشرة والاختيار. ومن أدلتنا على ذلك ما أطلقه الإمام الكاظم (ع) من إجابة رائعة لسؤال وجّهه إليه أبو حنيفة حينما لقيه:

قال: جعلت فِداك، ممن المعصية؟ قال (ع):

«إن المعصية لابدّ أن تكون من العبد أو من ربّه أو منهما جميعاً، فإن كانت من الله تعالى فهو أعدل وأنصف من أن يظلم عبده ويأخذه بما لم يفعله، وإن كانت منهما فهو شريكه، والقوي أولى بإنصاف عبده الضعيف. وإن كانت من العبد وحده، فعليه وقع الأمر وإليه توجّه النهي، وله حقّ الثواب والعقاب ووجبت الجنّة والنار»[1].

وقد ذكر الحديثَ الشريفُ المرتضى في أماليه. وذكر أنّ الشعراء نظموا معناه:

لم تخل أفعالنا اللاتي نُذمّ لها	احدى ثلاث خلال حين نأتيها
إما تفرّد بارينا بصنعتها	فيسقط اللوم عنّا حين ننشيها
أو كان يشركنا فيها فيلحقه	ماسوف يلحقنا من لائم فيها
أو لم يكن لإلهي في جنايتها	ذنبٌ فما الذنب إلا ذنب جانيها[2]

(١) المناقب: ٤/٣١٤/في علمه.

(٢) راجع الأمالي: ج١/١٥٢ .

هكذا يمارس الإمام (ع) دوره في كشف حقيقة القضاء والقدر ويدافع عن صفات الله سبحانه بما لا يمسّ حرية الإنسان ومسؤوليته تجاه فعله الإنساني، ويجعله هو المسؤول المباشر عن نتائج فعله ونتاج فكره...

ثم هل أنّ هذا القضاء والقدر الذي يعلمه الله تعالى قبل وقوعه، حتمي الوقوع بمعنى أنه لا يتخلف ولا يتغيّر؟

يجيبك الإمام (ع) أنه يمكن تغييره الى قضاء وقدر جديدين، وهذا لا يستلزم التغيّر في علم الله سبحانه أو إنكشاف علم آخر له أو مصلحة أخرى علمها مؤخرا، فإنّ هذا ما يحدث للإنسان الذي تخفى عليه الأمور والمصالح وهو ما يعبّر عنه بالبداء لدى الإنسان، ويستحيل على الله تعالى المطلع على كل ما في الوجود، بل البداء عند الله تعالى هو تغيير القضاء والقدر الى قضاء وقدر آخرين نتيجة لسعي الإنسان وعمله إذ يكافئه الله تعالى بتغييرهما مع علمه سبحانه بكلا القضائين والقدرين.

وللبداء بهذا المعنى آثار تربوية وأغراض إلهية مذكورة في الكتب الكلامية، أهمّها حثّ الإنسان لتغيير قدره ومصيره بالعمل الصالح والجدّ والإجتهاد، وهذا ما يصلح إجابة شافية لأولئك الذين يصنّفون الدين الإسلامي على لائحة الآيديولوجيات الحتمية، محاولين بذلك

تفريغ الدين من محتوى القابلية على تحريك الفرد وطاقاته الكامنة لتغيير الواقع ... إذْ نفهم من خلال الرؤية الآتية المخبوءة في النص التالي، إنّ الرؤية الإسلامية عبر نموذج الإمام الكاظم (ع) هي رؤية كلها تطلع وحركة وأمل وقدرة...

يؤكد الإمام (ع) على إحدى ثمرات البداء بقوله:

«عليكم بالدعاء، فانّ الدعاء والطلبة الى الله عزّ وجلّ يردّ البلاء وقد قدّر وقضي فلم يبق إلا إمضاؤه، فإذا دُعي الله عزّ وجلّ وسئل صرف البلاء صرفه»[1].

فالدعاء مخّ العبادة ـ كما جاء في الحديث ـ وهو إتصال بأخلاقية عالم الغيب وتمثّلٌ لها في الحركة الاجتماعية والفعل المؤثر البناء، إذ تتجلى من خلاله قيم السماء على شكل سلوك خارجي للفرد والمجتمع...

وبهذا يحوّل الإمام (ع) مفهوم القضاء والقدر الى معادل موضوعي لمخططات شلّ القدرة والإرادة الانسانيتين. ففيما تحاول السلطات الاستبدادية أن ترفع شعار القضاء والقدر لتسلب من الإنسان ثقته بمحورية دوره في صنع الحياة والحضارة ورفض التخريب والفساد، يرفعه الإمام (ع) خطابا إصلاحيا يحرّك نواة الوعي في

---

(١) البحار: ج٩٠/٢٩٥/باب فضل الدعاء والحث عليه، ح٢٢، نقلا عن مكارم الأخلاق.

الإنسـان ليتحـرك بوحـيٍ مـن ذلـك الوعـي باتجـاه الممارسـة الخلاقـة والسلوك القويم...

ولم يكـتف الإمـام (ع) ببـيان المفهـوم الواقعـي الدقـيق للقضـاء والقـدر، بل راح يعـرّي زيـف التفسـيرات المنحـرفة لـه. والـتي اسـتندت علـى فهـم مقلـوب لـبعض الـروايات الـواردة عـن الـنبي (ص)، حيث روى أهـل الحـديث «اعملـوا فكلٌ ميـسّرٌ لما خلق»[1] وفهمـوا منـه أنّ كل إنسان مخلـوق لغايـة مرسـومة لـه في قضاء الله وقدره وهو سائر بشكل حتمي الى تلك الغاية، غاية الأمر أنه وعاءٌ لارادة الله وقالب لفعله سبحانه، فـإن سـألتهم مـا فائـدة السـعي والعمـل اذا، أجابـوك بأنـه مـن أجـل الوصول الى تلك الغاية وتحقيقها في عالم الخارج!

ويشبه هذا الفهم حديث آخر مشهور عند المحدّثين:

«الشقي من شقي في بطن أمّه والسعيد من سعد في بطن أمّه»[2].

ويعـين علـى فهـم هـذين الحديثين بشـكل مغلـوط مـا تعـارف عـند العامّة من مفهوم القضاء والقدر على أنهما حتميا الوقوع لا يتغيران أبدا مهمـا حدث وأن الإنسـان لا نصيب لـه منهمـا إلا الكسب والتنفيذ،

---

(١) راجع الحديث في صحيح مسلم: ج٨/٤٤، وجامع الترمذي: ج١٠/٥١٦.

(٢) راجع الحديث في توحيد الصدوق: ٣٥٦، باب السعادة والشقاء.

فيما نجد الإمام (ع) يتصدّى للتفسير المنحرف لهذين الحديثين، وعيا منه بأن مؤداهما لا يسيء الى ساحة الخالق سبحانه وعدله فحسب، بل الى شلّ قدرة الإنسان وتعطيل حركته وإفشال سعيه الذي يبني الحياة والمستقبل...

روى الصدوق أنه (ع) سئل عن قول رسول الله (ص):

((إعملوا فكل ميسّر لما خلق)) ، فقال (ع): ((انّ الله عزّوجلّ خلق الجنّ والإنس ليعبدوه ولم يخلقهم ليعصوه، وذلك قولــه عزوجلّ (وما خلقت الجنّ والإنس إلا ليعبدون) فيسّر كلاً لما خلق لــه، فالويل لمن استحبّ العمى على الهدى))[1] .

وفي معرض إجابته عن الحديث الآخر قال (ع):

((الشقي من علم الله وهو في بطن أمّه أنه سيعمل أعمال الأشقياء، والسعيد من علم الله وهو في بطن أمّه أنه سيعمل أعمال السعداء))[2] .

فكون الإنسان ميسرا لما خلق له يعني أنه زود بآليات عقلية وجسدية تيسّر له المهمّة التي خلق من أجلها وهي العمل الصالح والحياة السعيدة والعاقبة الحميدة، وقد جاء الإمام (ع) بآية خلق

---

(١) توحيد الصدوق: ٣٥٦/باب السعادة والشقاء/حديث٢ .

(٢) نفس المصدر السابق.

الجنّ والإنس لغرض عبادته ومعرفته سبحانه، ليدلل على هذه المهمّة الاستخلافية الحضارية وهي معرفة الله تعالى والسير وفق شريعته ومنهاجه والذي يقود الى السعادة الأبدية. وطبيعي أن هنالك نفوسا وعقولا تنحرف عن هذه القصدية الإلهية فتكون عاقبتها الشقاء الدنيوي والاخروي، وهي داخلة في علم الله سبحانه منذ تكوّن الإنسان ونشأته في بطن أمّه بل وقبل ذلك أيضا، لكن علم الله سبحانه ليس علة لصدور الفعل الإنساني المؤدي الى الشقاء، اذ يكون متعلقه هو النتيجة وليس مقدماتها، امّا مقدماتها فهي مرتبطة بشكل مباشر بالإنسان وفعله وارادته وسعيه وتفكيره[1]. فتحويل الإمام (ع) مسار الحديث والذي أدّى الى فهم أعمق له يتجافى بالإنسان عن العجز والجبر والإعاقة، ويصون ساحة الحقّ تعالى عن الظلم والإجبار، هو خطوة جبّارة فاتحة في مجال توضيح الرؤية العقائدية ودفع الإنسان الى التكامل والإبداع والنهوض لتغيير الواقع...

---

(١) يضرب المتكلمون مثلا لطيفا يستدلون به على ذلك، فالمعلم طيلة السنة ـ ومن خلال خبرته ومعرفته بطلابه ونشاطهم اليومي ـ يعلم من سينجح من طلابه ومن سيرسب في الامتحان، وقد يكون علمه بفلان المهمل وفلان المتفوق قطعيا، لكن ذلك ليس سببا في النتيجة ، وكذا الطبيب الحاذق مع مريضه، إذ انّ علمه بأنّ مريضه سوف يموت أو يشفى ليس سببا للموت أو الشفاء...

الإمام (ع) وأهل الكتاب

كان الإمام (ع) المصداق الأمثل للتعامل مع الكتابيين، بقصد جذبهم الى ساحة النور والهداية، أولئك الذين عاملهم الإسلام معاملة محترمة في الدين والمال والعرض وتجنّب استخدام العنف معهم شريطة احترام مقررات الدولة الإسلامية ويسمّون بأهل الذمّة.

هؤلاء سمح لهم بالبقاء على دينهم على أمل أن يتعايشوا مع المجتمع الاسلامي ويهضموا عقيدته فيتأثرون بها. وهذه العملية تحتاج الى حسّ تبليغي ونقدي وثقافة واسعة بكتبهم المحرّفة وشرائع الأنبياء السابقين.

وفيما تنصرف السلطة العباسية عن مثل هذه المهمّة التبليغية والتثقيفية يتصدّى لها رمز الرسالة وعالم أهل البيت (عليهم السلام)، حيث روى الكليني أخبارا كثيرة حول محاججته (عليهم السلام) مع النصارى ورهبانهم بأدلة وبراهين ناصعة تمكنّت من جذب كثير منهم الى الدين الإسلامي ، كما كان (ع) يعمد الى رفع التشويه والتحريف الذّين لحقا بكتبهم السماوية.

جرت محاورة بين الإمام (ع) وبين أحد رهبانهم الواعظين (المبشّرين)، فأجاب فيها الإمام (ع) عن كل الأسئلة الموجّهة له بأجوبة مقنعة وردود محكمة حتى حسن إسلام النصراني وتزوّج امرأة من

بني فهر وأصدقها الإمام (ع) خمسين دينارا من صدقة علي بن أبي طالب (ع) وأخدمه وبوّأه حتى مات[1] .

ولما جاء بُريه النصراني مع هشام بن الحكم الى الإمام الصادق لقيا أبا الحسن الكاظم فحكى له هشام الحكاية، فلما فرغ قال (ع) لبريه:

((يا بريه كيف علمك بكتابك؟)).

بريه: أنا عالم به!

الإمام (ع): ((كيف ثقتك بتأويله؟)).

قال: ما أوثقني بعلمي فيه!

فابتدأ أبو الحسن الكاظم (ع) يقرأ الإنجيل.

قال بريه: إيّاك كنت أطلب منذ خمسين سنة أو مثلك.

فآمن وحسن إيمانه وآمنت المرأة التي كانت معه[2] .

وجاء في ذيل رواية أخرى دارت فيها محاورة أخرى مع أحد الرهبان سؤال (مفاتيح الجنّة من ذهب أو فضّة) مما يدلّ على مدى التشويه والخرافات التي لحقت الدين المسيحي آنذاك، حيث يستبطن

---

(١) الكافي: ج١/باب مولد أبي الحسن موسى بن جعفر(ع)، حديث ٤ .

(٢) الكافي: ج١/باب ان الأئمة عندهم جميع الكتب/حديث١ .

السؤال مادية مفاتيح الجنّة ومركوزية ذلك في ذهنية الراهب، غير انّ الإمام (ع) أجاب كاشفا ضيق هذه النظرة وخطئها:

((مفتاح الجنّة لسان العبد: لا إلــه إلا الله)).

فقال الراهب: صدقت وأسلم والجماعة معه[1].

وهذا ما يفتح الذهنية المعاصرة على ضرورة تبنّي الأساليب التبليغية الرصينة المدعمة بالحجج والبراهين الدينية والقرآنية والعقلية، وحتمية الإحاطة بكتب الانبياء السابقين والتخصص في هذا المجال، لأجل الكشف والمقارنة وجذب الملتزمين بها بشكلها المحرّف الى حضيرة المسلمين وفكرهم الديني، لاسيّما وأن عمليات التبشير قائمة على قدم وساق وهي مدعمة بالمال والقوّة فلابدّ من تحرّك تثقيفي وتبليغي مقابل يستند على أساليب العصر وطرق التفكير المعاصرة، كما ينبغي لأصحاب المال والقرار في الدولة الإسلامية أن يولوا الجانب عناية أكبر وسهما أوفر...

التنديد بالإيمان القشري واعداد النموذج الراسخ

وأخيرا ، فالاعتقاد بحاجة الى أن يحمل همّه القلب، ويتمازج مع روح الإنسان وشعوره، وهو بهذا يكتسب لحمة نفسية وقلبية لا تنفك عن كيان الإنسان ووجوده، والاعتقاد حينما يتجلى حالة إيمانية قلبية

---

(١) المناقب: ج٤/٣١٤/في علمه.

من هذا النوع الممتزج بالكيان والوجود والشعور، سوف يفعل فعله في حركة الإنسان ويدفعها بشكل قوي ومتماسك وجارف لا يؤثر عليها عواصف التشكيك وانفشاش الرؤية ودوّامات المحن.

من هنا يقسّم إمامنا الكاظم (ع) الاعتقاد الى إيمان وكفر، ثم يقسّم الإيمان الى ثابت محكم وقشري مُعار، ثم يذكر من يمثّل الإيمان المعار في عصره كنموذج للتدليل والتمثيل.

روى الكليني بسنده الى عيسى شلقان، قال: كنت قاعدا فمرّ أبو الحسن موسى (ع) ومعه بَهمة،فقلتُ: يا غلام، ما ترى ما يصنع أبوك الصادق (ع)؟ يامرنا بالشيء ثم ينهانا عنه، امرنا أن نتولى أبا الخطاب، ثم امرنا أن نلعنه ونتبرّأ منه؟! فقال (ع):

((إنّ الله خلق خلقاً للإيمان لا زوال له، وخلق خلقاً للكفر لا زوال له، وخلق خلقاً بين ذلك أعارهم الإيمان يسمّون بالمُعارين اذا شاء سلبهم، وكان أبو الخطاب ممن أُعير الإيمان)).

قال الإمام الصادق (ع) حينما بلغه جواب ابنه الكاظم (ع):

((انّه نبعة نبوّة)) [1].

فنبعة النبوّة (ع) يقف على أبعاد الرسالة في جانبها الإيماني

(١) الكافي: ج٢/كتاب الإيمان والكفر/باب المعارين/حديث٣ .

والاعتقادي القلبي، فلو كان أبو الخطاب يتوفر على حالة إيمانية راسخة لم ينحرف هكذا ولم يعزل الإمام (ع) الأمّة عنه، لكنّه كان ذا حالة إيمانية قشرية، الأمر الذي دعا الإمام (ع) الى فضح إنحرافه والتنديد بحالته الإيمانية هذه، مدللا للأمّة على نموذج الشخصية القلقة المتذبذبة التي لا تبني ولا تصلح ولا يُؤمن عليها من الإختراق، في إشارة ضمنية الى ضرورة تمثّل الحالة الايمانية الاخرى الراسخة، التي تصون الفرد والمجتمع وتحفظ المباديء العقائدية وتبني الشخصية الرسالية المنشودة المتابعة لمستجدات الواقع وقضايا العصر.

وفي الوقت الذي يشير الإمام (ع) الى نموذج الإيمان القشري يربّي نموذج الإيمان الراسخ ويعدّ هشام بن الحكم كمشروع يمثّل ذلك النموذج، حيث قاد هشام سلسلة من المناظرات العقائدية والكلامية كان آخرها هي التي سببت هروبه عن بغداد والرجوع الى مسقط رأسه الكوفة. تلك المناظرة الطويلة الحافلة بالجدل والمحاججة والنقاش العلمي، ليُدلل على مدى رسوخ عقيدته وايمانه بالمنهج وعمق رؤيته بهذا الاتجاه.

روى الصدوق أن مجلسا كان ليحيى بن خالد يحضره المتكلمون من كل فرقة وملة يوم الأحد، فيتناظرون في أديانهم ويحتجّ فيه بعضهم على بعض، فبلغ ذلك الرشيد، وأحبّ أن يحضره بحيث لا يعلمون بحضوره، فبلغ ذلك المعتزلة، وعمدوا الى احضار هشام

ومناظرته في الإمامة لعلمهم إنكار الرشيد على من قال بها. فدارت مناظرة بين هشام وبيان ـ وكان من الخوارج الحرورية ـ والرشيد يتسمّع. ثم دارت مناظرة أخرى بين هشام وضرار. فلما سمع هارون الرشيد المناظرتين عضّ على شفتيه قائلا: مثل هذا حي ويبقى لي ملكي ساعة واحدة! فوالله للسان هذا أبلغ في قلوب الناس من مائة ألف سيف! فعلم هشام بوجود الرشيد وانسلّ وأمر بنيه بالتواري وهرب الى الكوفة ونزل عند بشير النبّال ـ وكان من المحدّثين من أصحاب الإمام الصادق (ع) ـ ثم اعتلّ علة شديدة هناك، وتوفي رحمه الله سنة تسع وسبعين أو تسع وتسعين ومائة والف، مطمئن الإيمان راسخ العقيدة ذابّا عن الفكر والمنهج القويمين[1].

كلمة في الختام

هذه مجموعة من النماذج السلوكية والتنظيرية الخالدة في مجال الحياة السياسية والإجتماعية والعلمية والثقافية، لازالت خالدة حيّة متحركة المفهوم والقيمة في حياتنا المعاصرة، فما أحوج مجتمعاتنا الإسلامية التائهة في الضباب الكثيف للأفكار والثقافات، الى تبنّيها واستقصاء أبعادها واكتشاف دلالاتها، لتتمثلها سلوكا خلاقا للحضارة وضمانة للذات الفردية والجماعية عن كل وافد دخيل...

---

(١) راجع المناظرة وما بعدها في كمال الدين وتمام النعمة للصدوق: ج٢/٢٦٢/باب ذكر كلام هشام بن الحكم.

إنّ كلّ ما مرّ علينا هو عبارة عن تواريخ ونصوص مخبوءة في منظومتنا التاريخية، تتحدّث عن سلوك ووعي للإمام السابع موسى بن جعفر (ع) يرتّب مفرداتها ليقوّم الإعوجاج ويصلح الفاسد من حياة المسلمين، ويقرّر بها قواعد الإصلاح المطلق عن الزمان والمكان، ليوحي لنا ـ نحن المطالبين بالتخلي عن هويّاتنا لصالح المنظومة العالمية الجديدة ـ بأنّ ثمّة أملا في الانعتاق من كلّ قيد والإنطلاق على هدي الإسلام وفكره بإتجاه السعادة الدنيوية والفوز بالعالم الأُخروي الكريم...

ولا يتم ذلك إلا بسبر أغوار هذه المنظومة المعرفية الهائلة ذات الطبيعة التغييرية المتطلعة لكل ما هو جديد .. إننا نفهم من خلال هذا الفكر الإصلاحي للإمام الكاظم (ع) ضرورة التعامل مع النصوص الإسلامية بطريقة متجددة دائما تحمل في منهجيتها وسائل وآليات معاصرة ومتحضرة وملائمة لخصوصيات الواقع وحجم تعقيداته.

إنّها ليست كل مفردات قاموس الإمام الإصلاحي، لكنها نماذج ينبغي الإتجاه نحو إثراء الكشف عنها وتعميق دلالاتها في ذهنية الأمّة والأجيال المتعاقبة، كما ينبغي الاتجاه نحو تمثيلها والسعي لتطبيقها بالنسبة لكل مصلح مبدئي يحاول أن يصير من رجال الزمن الأول...

المحتويات